الأسلوب الكنائى

نشأته - تطوره - بلاغته

الدكتور
محمود السيد شيخون
أستاذ البلاغة والنقد
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين — بالقاهرة
جامعة الأزهر

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــــــد

معنى كلمة " كنايــــــة "

الكناية فى اللغة : مصدر كنى يكنى ، فيكون يائى اللام ، أو كنى يكنو ، فيكـون واوى اللام[1] .

والمعنى العام لهذا المصطلح البلاغى :" هو أن تتكلم بشىء ، وتريد غيره"[2] .

وقد وردت[3] لها صور بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿**وأحـل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**﴾[4] فكلمة "الرفث" لم يرد بهـا لفظهـا ، أو المعنـى الظاهر لهذا اللفظ ، ومثلها لفظا "الغائط ، والملامسة" فـى قولـه تعـالى : ﴿**أو جـاء أحـد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء**﴾[5]

كما وردت فى الحديث النبوى ألفاظ بهذا المعنى ، أى الدلالة على مسـتور خفـى توحى به اللفظة ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لغلام أسـود اسمـه أنجشـة كـان يحـدو بالنساء ركابهن فـى بعـض أسـفاره ، ويرتجـز بنسـيب الشـعر والرجـز وراءهـن "رويـدك سوقك بالقوارير" فكلمة "القوارير" لم يرد بها لفظها أو المعنى الظاهر لهذا اللفـظ ، وإنمـا

---

(١) انظر لسان العرب مادة : كنى ، ٢٠ : ٩٨ ، والقاموس المحيط : ٤ : ٣٨٦ .

(٢) انظر مختار الصحاح مادة كنى ص ٥٩١ .

(٣) أى الكناية .

(٤) البقرة : ١٨٧ .

(٥) النساء : ٤٣ .

أريد بها "النساء" .

كما وردت لفظة الكناية ، أو مايشتق منها بهذا المعنى فى شعر الشعراء ، فقال أبو زياد الكلابى :

وإنى لأكنى عن قذور بغيرها   وأعرب أحيانا بها فأصارح(١)

وقال ابن برى :

وقد أرسلت فى السر أن قد فضحتنى   وقد نحت باسمى فى النسيب وما تكنى

---

(١) قذور : اسم امرأة .

مقدمة

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعد

فهذه دراسات حول الأسلوب الكنائى قد دفعنى إلى القيام بها أربعة أمور هى :

١- الرغبة فى التعرف على تاريخ هذا الأسلوب ، كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟

٢- معرفة الشخصيات التى أسهمت فى اكتشاف هذا الأسلوب ، وكشفت عن جماله وأبانت بلاغته .

٣- الكشف عن البيئات التى عاش فيها هذا الأسلوب ، والمؤلفات التى احتوته .

٤- الكشف عن أسراره البلاغية ، ولطائفه الأدبية .

وبعد طول معاشرة لكتب البلاغة والأدب قديمها ، وحديثها ، تمكنت من أن ألم بأطراف هذا الأسلوب المتشبعة ، وأن أزيح الستار عن بعض أسراره ولطائفه .

وقد كان سبيلى فى هذا البحث أننى سلكته فى تمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة .
أما التمهيد فقد كشفت فيه عن معنى كلمة "كناية"

وأما الفصول ، فقد تحدثت فى الفصل الأول منها عن الكناية منذ أن كانت صورة فى خيال الشعراء ، حتى صارت فنا من فنون البلاغة ، مستعرضا فى هذا الفصل جهود علماء البلاغة مناقشا آراءهم ، كاشفا النقاب عن مناهجهم ، مسجلا ملاحظاتى على دراستهم .

وتحدثت فى الفصل الثانى عن الأسلوب الكنائى فى العصر الحديث متتبعاً بالبحث والدراسة علماء البلاغة الذين عنوا بهذا الأسلوب ، مزيحا الستار عن جهودهم ، مسجلا

ملاحظاتي على دراستهم .

وتحدثت فى الفصل الثالث عن صور الأسلوب الكنائى التى تبلورت عنها جهود علماء البلاغة فى نهاية المطاف ، فتناولت هذه الصور بطريقة سهلة بعيدة عن الخلافات التى أطاحت ببهجتها وروائها .

وفى الفصل الرابع تحدثت عن الأثر البلاغى للأسلوب الكنائى ، فكشفت القناع عن بعض ماينطوى عليه هذا الأسلوب من الأسرار البلاغية ، واللطائف الأدبية .

وفىالفصل الخامس والأخير تحدثت عن الأسلوب الكنائى فى القرآن الكريم ، فأمطت اللثام عن خصائصه التى كانت السر فى عظمته ، والسبب فى جماله وخلوده .

وأما الخاتمة فقد أثبت فيها النتائج التى انتهيت إليها فى بحثى هذا . والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، خادمة للغة القرآن العظيم . إنه سميع مجيب ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

الدكتور
محمود السيد شيخون
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

الفصل الأول

الكناية فى القديم

لقد عرف القدماء من الشعراء الكناية صورة فى خيالهم ، توضح الفكـرة، وتزين الأسلوب ، و لم يعرفوها لونا بلاغيا محددا واضح المعالم بين السمات.

فكنى امرؤ القيس بالبيضة عن المرأة فى قوله:

وبيضة خدر لايرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل

وكنى النابغة الذبيانى عن طول العنق وتمام الخلق بقوله :

إذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها ... ومن يتعلق حيث علق يفرق[1]

وكنى عنترة العبسى بالشاة جاريته فى قوله :

يا شاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت على وليتها لم تحرم

وكنى أوس بن حجر عن الحرب بقوله:

حتى يلف نخيلهم ، وبيوتهم ... لهب كناصية الحصان الأشقر

وكنى زهير عن طول عنق الفرس وقوائمه بقوله:

وملجمنا ما إن ينال قذاله ... ولا قدماه الأرض إلا أنامله[2]

وكنى الأعشى عن رقة الخضر وتمام الخلق بقوله:

صفر الوشاح ، وملء الدرع خرعبة ... إذا تأتى يكاد الخضر ينخزل[3]

---

(١) ارتعشت : لبست الرعاث وهو القرط .

(٢) ملجمنا : يريد الذى يلجم خيلهم .

(٣) صفر الوشاح: ضخمة- الخرعبة: الرخصة اللينة الحسنة الخلق- تأتى:ترفق أوتهيأ للقيام - ينخزل : ينثنى أو ينقطع .

وسار الإسلاميون من الشعراء فى نفس الطريق التى سار فيها القدماء إلا أنهم أكثروا من الكناية، وتأثروا بصورتها فى القرآن الكريم.

الكناية والدراسات البيانية

إن أول من تكلم عن الكناية كلون بلاغى -فيما أعلم- هو أبوعبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة٢٠٧هـ وقد فهم منها أنها كل مافهم من الكلام ومن السياق، من غير أن يذكر اسمها صريحا فى العبارة[١] . ثم كشف النقاب عن دلالة الكناية على معناها ، وبين أن هذة الدلالة عقلية، وليست لغوية،أووضعيةوفى هذا يقول:" وهذا اللفظ فى العبارة لم يوضع فى الأصل عند أصحاب اللغة للدلالة على هذا المعنى، وإنما فهمت تلك الدلالة من سياق الكلام بشئ من الرويةوإعمال العقل[٢] ".

ثم أورد لها شواهد كثيرة منها قوله تعالى: ﴿حتى إذاكنتم فى الفلك، وجرين بهم بريح طيبة﴾[٣] ثم وضح الكناية فى الآية الكريمة بقوله: إنه رجوع من المخاطبة إلى الكناية، والعرب تفعل ذلك ، ومنها قوله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين﴾[٤] ومنها قوله تعالى : ﴿كل من عليها﴾[٥] كناية عن الأرض ، وقوله تعالى : ﴿حتى توارت بالحجاب﴾[٦] كناية عن الشمس .

وذكر من شواهدها أيضا قول النابغة الذبيانى :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

(١) مجاز القرآن لأبى عبيدةص١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص١٣٦ .

(٣) يونس : ٢٢ .

(٤) الفاتحة : (١،٤) .

(٥) الرحمن : ٢٦ .

(٦) ص : ٣٢ .

وإن من يتأمل هذه الشواهد التى أوردها أبو عبيدة واستشهد بها على الكناية كما يراها يدرك أن بعضها يطلق على الكناية فى اصطلاح المتأخرين من علماء البلاغة، وبعضها يطلق على مايسمى عندهم بالالتفات، ومن هنا يتضح لنا أن مفهوم الكناية عند أبى عبيدة عام ، فهو ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلى .

الجاحظ والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبى عبيدة" أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ" المتوفى سنة٢٥٥هـ. فأشار إلى أن الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الإفصاح والكشف . ثم أورد للكناية بعض الشواهد منها قول أبى شريح بن الحارث الكندى:"الحدة كناية عن الجهل" وقول أبى عبيدة :" العارضة كناية عن البذاء[1] "ثم قال:" وإذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل[2] " .

ويلاحظ على الجاحظ أنه لم يضع تعريفا للكناية، وإنما كان حديثه عنها أنه رأى صورة كلامية- كما هى عادته- استتر فيها اللفظ الأصلى الموضوع للمعنى، وظهر لفظ غيره ، فأطلق عليها الكناية والتعريض. كما يلاحظ عليه أيضا أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض والذى يفهم من شواهده التى أوردها للكناية وتعليقه عليها أنه لايرى فرقا بينهما ، وأن الاسمين عنده مترادفان.

المبرد والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد الجاحظ "المبرد" المتوفى سنه٢٨٥هـ فى كتابه " الكامل"[3] فقسمها إلى ثلاثة أقسام:-

١- القسم الأول : ما كان للتفخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية، وهو أن يعظم الرجل أن

---

(١) البذاء : كسحاب القدرة على الكلام .

(٢) البيان والتبين ص ٢٦٣ .

(٣) انظر الكامل جـ٢ ص٦ .

يدعى باسمه، ووقعت فى الكلام على ضربين:

(أ) وقعت فى الصبى على جهة التفاؤل بأن يكون له والد، فيدعى بوالده كناية عن اسمه.

(ب) وفى الكبير ينادى باسم ولده صيانة لاسمه.

٢- القسم الثانى: ما كان للتغطية والتعمية كقول ذى الرمة:

أحب المكان القفر من أجل أننى ... به أتغنى باسمها غير معجم

٣- القسم الثالث: الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره كقوله تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾[(١)] أى لفروجهم ، وقوله تعالى عن المسيح ابن مريم وأمه: ﴿كانا يأكلان الطعام ﴾[(٢)] كناية عن قضاء الحاجة، وقوله: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾[(٣)] كناية عن الجماع.

ويلاحظ على المبرد أنه لم يضع تعريفا للكناية، ويلاحظ عليه أيضاً أنه لم يفرق بينها وبين التعريض، كما يلاحظ عليه أن تقسيمه الكناية إلى الأقسام الثلاثة السالفة الذكر ليس جيدا ، لأنه لا يرجع فى تقسيم الجنس إلى أنواعه، وإنما هذة الأقسام فى الحقيقة ضروب لما تؤديه الكناية من فائدة فى صناعة الكلام.

ابن المعتز والكناية:

ثم تحدث عن الكناية بعد المبرد" أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز"المتوفى سنه٢٩٦هـ فى كتابه" البديع". فعقد لها فصلا خاصا تحت اسم " الكناية والتعريض"، وأورد لها كثيرا من الشواهد الشعرية منها قول الشاعر فى حمام:

---

(١) فصلت : ٢١ .

(٢) المائدة : ٧٥ .

(٣) البقرة : ١٨٧ .

أبوك أب مازال للناس موجعا لأعناقهم نقرا كم ينقر الصقر

إذا عوج الكتاب يوما سطورهم فليس بمعوج له أبدا سطر

- وابن المعتز يعد كلا من الكناية والتعريض فنا من محسنات الكلام.

- ويلاحظ على ابن المعتز أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض؛ بل كانت شواهدهما عنده مختلطة . ولعله لا يرى فرقا بينهما شأنه فى ذلك شأن من سبقه من العلماء، كما يلاحظ عليه أنه لم يضع تعريفا لأحدهما . ومن هنا يتضح لنا أن ابن المعتز لم يقدم للكناية جديدا سوى الإكثار من الشواهد الشعرية.

قدامة بن جعفر والكناية.

ثم تحدث عن الكناية"قدامة بن جعفر" المتوفى سنة٣٣٧هـ تحت اسم"ائتلاف اللفظ والمعنى" وسماها"الإرداف" وعرفها بقوله :" أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعانى، فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى ؛ بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع"(١) .

ثم ساق لها بعض الشواهد الشعرية منها قول الشاعر:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها و إما عبد شمس وهاشم

وقدامة وإن لم يتكلم عن الكناية، ولم يذكرها فى كتابه، بل تكلم عن صورة قريبة منها سماها" الإرداف" إلا أن تعريفه لتلك الصورة البلاغية قريب جدا من مفهوم الكناية عند المتأخرين من علماء البلاغة، وإن بعض الشواهد التى ساقها للإرداف تصلح أن تكون من شواهد الكناية عند المتأخرين من علماء البلاغة، بل إن بعضهم جعلها من شواهد الكناية .

---

(١) نقد الشعر ص٨٨ ، ٨٩ .

أبوهلال العسكرى والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد قدامة" أبو هلال العسكرى" المتوفى سنة٣٩٥هـ فى كتابه" الصناعتين"تحت اسم" الكناية والتعريض" فعرفها بقوله:" وهى أن يكنى عن الشئ ويعرض به، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشئ"(١) ثم استشهد لها من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء**﴾(٢) فالغائط كناية عن قضاء الحاجة وملامسة النساء كناية عن الجماع، ومن النثر بما فعله العنبرى إذ بعث إلى قومه.

بصرة شوك، وصرة رمل، وحنظلة، يريد جاءتكم بنو حنظلة فى عدد كثير كثرة الرمل والشوك ومن الشعر بقول الشاعر فى حجام :

أبوك أب مازال للناس موجعا *لأعناقهم نقرا كما ينقر الصقر*

إذا عوج الكتاب يوما سطورهم *فليس بمعوج له أبدا سطر*

ويلاحظ على أبى هلال فى دراستة للكناية أنه ترسم خطا ابن المعتز، فنقل تسميته كما هى، و لم يفرق بين التعريض والكناية على نحو ما فعل ابن المعتز، كما أنه استشهد ببعض شواهده.

ابن رشيق القيروانى والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبى الهلال"ابن رشيق القيروانى" المتوفى سنة٤٦٣هـ فى كتابه" العمدة" تحت اسم التورية فقال(٣) : "وأما التورية فى أشعار العرب، فإنما هى كناية بشجرة ، أو بيضة ، أو ناقة ، أومهرة ، أو ماشاء كل ذلك كقول المسيب بن علس:

---

(١) الصناعتين ص١٨٥ .

(٢) النساء : ٤٣ .

(٣) العمدة ج١ ص٢١٥ .

دعا شجر الأرض داعيهم لينصره السدر و الأثأب

فكنى بالشجر عن الناس حيث يقال فى المنثور أيضا: جاء فلان بالشوك والشجر، إذا جاء بجيش عظيم.

وقول عنترة :

ياشاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

وإنما ذكر امرأة أبيه، وكان يهواها، وقيل: بل كانت جارية، فلذلك حرمها على نفسه.

وكقول امرئ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

فكنى بالبيضة عن المرأة ، وقوله تعالى :﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة﴾[1] حيث كنى بالنعجة عن المرأة.

مما سبق يستبين لنا أن ابن رشيق يريد من الكناية معنى عاما هو ستر المعنى وإخفاؤه وراء لفظ غير لفظه .

ويؤخذ عليه أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض شأنه فى ذلك شأن غيره من العلماء الذين سبقوه.

ومن هنا نستطيع أن نقول فى اطمئنان إن ابن رشيق لم يقدم للأسلوب الكنائى جديدا يذكر فلقد ترسم خطا من سبقه من العلماء، واختلف معهم فى التسمية فقط.

ابن سنان الخفاجى والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد ذلك " ابن سنان الخفاجى" المتوفى سنة٤٦٦هـ فى

(١) ص : ٢٣ .

كتابه"سر الفصاحة" تحت " تأليف الكلام، وجريانه على العرف العربى الصحيح" فقال[1] " ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح"

ثم أورد لها كثيرا من الشواهد، وصف بعضها بالحسن دون تعليل، ووصف البعض الآخر بالقبح مبينا السبب فى ذلك.

فمن الشواهد التى أوردها ووصفها بالحسن والجودة قول امرئ القيس:

فصرنا إلى الحسنى ودق كلامنا   ورضت فذلت صعبة أى إذلال

ثم كشف عن الكناية فى البيت ووصفها بالحسن فقال:"لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة" .

وقول أبى الطيب:

تدعى ماادعيت من ألم الشو   ق إليها والشوق حيث النحول

ثم علق على البيت بقوله" لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية ومن الشواهد التى أوردها للكناية ووصفها بالقبح والرداءة قول أبى الطيب:

إنى على شغفى بما فى خمرها   لأعف عما فى سراويلاتها

وقول الآخر:

تعطين من رجليك ما   تعطى الألف من الرغاب[2]

ثم بين الكناية فى البيت بقوله:" يكنى بهذا عن امتلاء رجليها ولينهما" .

وقول الرضى يرثى والدته:

كأن ارتكاضى فى حشاك مسببا   ركض الغليل عليك فى أحشائى

---

(١) سرا الفصاحةص ١٩٢ .

(٢) الرغاب : الأرض اللينة الواسعة الدمثة .

ثم يعلق على البيت بقوله:" يعنى أن ارتكاضه وهو جنين فى بطنها كان سببا لارتكاض غليله فى أحشائه لموتها".

ثم يعلل قبح البيتين فيقول:" لأنك إذا تأملت هذين البيتين وجدتهما يجريان من بيت امرئ القيس مجرى الضد، وذلك أن امرأ القيس عبر عما يجب أن يكنى عنه من المباضعة، فكنى بأحسن كناية، وهذان عبرا عما لايجب أن يكنى عنه فأتيا بألفاظ يجب أن يكنى عنها"(١)

إن دراسة الخفاجى للكناية دراسة تمتاز بالعمق والتحليل، فقد جعل الكناية أصلا من أصول الفصاحة، وشرطا من شروط البلاغة، وهذا اتجاه لم يسبقه إليه أحد من علماء البلاغة كما أنه لم يكتف بإرسال الشواهد، وبيان موضع الكناية منها كما فعل غيره من العلماء الذين سبقوه ، بل تعدى هذا إلى النقد، فكشف عن الحسن الجيد من الكناية ، وأماط اللثام عن القبيح الردئ منها، مبينا السبب فى ذلك، وهذا أيضا اتجاه قد انفرد به دون غيره ممن سبقه من العلماء، وهذه الدراسة التحليلية النقدية الفريدة إن دلت على شئ فإنما تدل على ما يمتاز به الخفاجى من صفاء الذهن، ورهافة الحس، ودقة الشعور والخبرة الواسعة بأساليب اللغة والقدرة على تمييز جيد الكلام من رديئه، وغثه من سمينه إلا أنه يؤخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية، كما أنه لم يكشف عن فائدتها وأثرها فى الأسلوب ، و لم يفرق بينها وبين التعريض، شأنه فى ذلك شأن من سبقه من العلماء.

عبد القاهر الجرجانى والكناية.

ثم تحدث عن الكناية" عبد القاهر الجرجانى" المتوفى سنة ٤٧١هـ فأماط اللثام عن المراد بها فقال:

" والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلا عليه، كقولهم: هو طويل النجاد، يريدون طويل القامة، وكثير الرماد يعنون

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٣-١٩٥ .

كثير القرى"[1] .

والمتأمل فى هذا النص يدرك أن عبد القاهر أراد أن يبين معناها، ويضع لها تعريفـا، ويكشف عن مغزاها فأبان أنها إرادة المعنى بغير لفظه الخاص به ، ولكن يذكـر معنىآخـر من شأنه أن يردف المعنى المرادفى الوجـود، وأن يكـون إذ كـان أفـلا تـرى أن القامـة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر.

ثم وازن عبد القاهر بين الإفصاح والكناية، ورجح الأخـيرةعلى الإفصـاح فقـال:" قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح...إلا أن ذلك وإن كان على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل فى كل ما يطلب العلـم بـه حتـى يبلـغ فيـه غايتـه، وحتـى يغلغـل الفكـر إلى زوايـاه، وحتـى لايبقـى فيـه موضـع ومكـان مساءلة"[2]. ثم أخذ يدلل على مزيتها على التصريح ويتخيل أن سائلا يسأله، هـل زيـادة الكناية على التصريح فى ذات المعنـى أو فـى إثباتـه؟ فقـال[3] : ليـس المعنـى إذا قلنـا: إن الكناية أبلغ من التصريح أنك حين كنيت عن المعنى زدت فى ذاته ؛ بل المعنى أنـك زدت فى إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد ، فليست المزية فى قولهـم: جـم الرمـاد أنـه دل علـى قرى أكثر ، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبته إيجابـا هـو أشـد ، وادعيته دعوى بها أنطق ، وبصفتها أوثق" .

ويفهم من كلام عبد القاهر هذا أن مزية الكناية علـى التصريـح راجعـة إلى إثبـات المعنى لا إلى زيادته، إذ الكناية فيها إثبات للمعنى بالدليل والبرهان بخلاف التصريـح فـإن فيه إثبات المعنى من غير دليـل ولا برهـان ، وممـا لاشـك فيـه أن إثبـات المعنـى مصحوبـا بالدليل أبلغ من إثباته عاريا من الدليل.

ثم بين أن الكناية إما أن تكون واقعة فى نفس الصفة المراد إثباتها، وإمـا أن تكـون لإثبات الصفة، ومثّل للأولى بقول زياد الأعجم :

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص٥٥.

(٣) دلائل الإعجازص٥٨.

إن السماحة والمروءة والندى　　　في قبة ضربت على ابن الحشرج

ثم علق عليه بقوله:" فإن الشاعر أرادَ أن يثبت هذه المعانى والأوصاف خلالا للممدوح ، وضرائب فيه" فترك أن يصرح فيقول:" إن السماحة والمروءة والندى لمجموعة فى ابن الحشرج ،أو مقصورة عليه، أو مختصة به ، وما شاكل ذلك مما هو صريح فى إثبات الأوصاف للمذكورين بها ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح ، فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه ، وإشارة إليه ، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، ويظهر فيه ماأنت ترى من الفخامه ، ولو أنه أسقط هذه الواسطة من البين ، لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا."[٣]

ومثل للثانية بقوله : " المجد بين ثوبيه " " والكرم بين برديه " وعلق عليه بقوله : "لأن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلها فى ثوبه الذى يلبس "

ثم مثل لها أيضا بقول أبى نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه　　　ولكن يصير الجود حيث يصير

ثم علق على البيت بقوله : " كل ذلك استعملت فيه الكناية لإثبات الصفة للممدوح بإثباتها فى المكان الذى يكون فيه ، وإلى لزومها له بلزوم الموضع الذى يحله."[٤]

ثم اشترط عبد القاهر لحسن تصوير الكناية وجمالها أن يوجد فيها التناسب بين ألفاظها ومعانيها ، ثم كشف عن مكان الكناية ، وجعل اللفظ كما جعل الفصاحة فيها عقلية أو معنوية لا لفظية وذلك بتقسيمه الكلام الفصيح إلى قسمين:

١- قسم تعزى المزية فيه إلى اللفظ .
٢- قسم تعزى فيه المزية إلى المعنى .

وجعل الكناية من القسم الأول .

وحاصل كلام عبد القاهر فى هذا المعنى ، أن المعنى الكنائى لا يعرف من لفظ الكلام وإنما يعرف بالنظر اللطيف ، والحس الدقيق ، وذلك مرجعه العقل .

ولذلك فإننا نراه يدلل على ذلك فيقول : " ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم : " هو كثير رماد القدر " وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ ، ولكنك عرفته من رجوعك إلى نفسك . وقولك : إنه كلام قد جاء عنهم فى المدح ، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدللوا بكثرة الرماد على أنه تنصب القدور الكثيرة، ويطبخ فيها للقرى والضيافة ، فإذا زادت كثرة الطبخ فى القدور ، كثر إحراق الحطب ، وإذا كثر إحراق الحطب تحتها ، كثر الرماد لامحالة".

ثم كشف عبد القاهر عن بلاغة الكناية وحسن تصويرها ، وبين أنها راجعة إلى طريق إثبات المعنى لا المعنى نفسه ، فقال :" فينبغى أن ليس المزايا لهذه الأجناس – الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز – على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التى تحسها فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم بخبره إليها ، ولكنهافى طريق إثباته لها وتعزيزه إياها[1]"

ويقول فى موضع آخر: "فإنهم[2] لا يعنون المعانى التى يقصد المتكلم بخبره إليها كالقرى والشجاعة والترادف ... وإنما يعنون إثباتها لما ثبتت له، ويخبر بها عنه ، فإذا جعلوا لها مزية على التصريح ، لم يجعلوا تلك المزية فى المعنى المكنى عنه ، ولكن فى إثباته الذى ثبت له . وذلك أنا نعلم أن المعانى التى يقصد الخبر بها لا تتغير فى أنفسها ، بأن يكنى عنها بمعان سواها وتترك الألفاظ التى هى لها فى اللغة ، وإنما كان بإثبات شاهدها ودليلها ، وما كان علم على وجودها .

ومما لاشك فيه أن ذلك لا محالة أبلغ من إثباتها بنفسها لأنها على الأول يكون سبيلها سبيل للدعوى يكون معها شاهد " .

ودراسة عبد القاهر للكناية دراسة فريدة ، وجديدة ، لم أرها لأحد من السابقين فقد خطت الكناية على يديه خطوات واسعة ، فقد عرفها ، وخرج تعريفها ، وبين فضلها على التصريح ومزيتها على الإفصاح ، ووضح فروعها وأقسامها ، وكشف النقاب عن حسنها وجمالها ، ووضع شروطا لهذا الحسن والجمال ، وبين موضعها ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

ونوع دلالتها ، ثم أزاح الستار عن بلاغتها بأسلوب جمع فيه بين روعة الأدبية ، والدقة العلمية ، وقد عالج كل هذه الجوانب البلاغية معالجة الخبير بأساليب اللغة العربية ، المتذوق لحلاوتها ، الفاهم لأهدافها ومراميها ، الواقف على أسرارها ودقائقها ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتحليل ، وإن كنت آخذ عليه عدم تبويبها ، ودراستها دراسة منهجية فى مكان واحد ، تمكن الباحث أن يضع يده عليها بسهولة ، فلقد تكلم عنها فى ستة مواضع فى كتابه "دلائل الإعجاز"

أبو يعقوب السكاكى والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد عبد القاهر " أبو يعقوب السكاكى " المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فى كتابة " المفتاح " تحت الأصل الثالث من علوم البيان فعرفها بقوله(١) : "هى ترك التصريح بذكر الشىء إلى ذكر ما هو ملزومه ، لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول: زيد طويل النجاد ، فينتقل منه إلى ماهو ملزومه وهو طول القامة "

ثم علل لسبب هذه التسمية فقال :" وسمى هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح ، ودلالة كنى على ذلك لأن : ك ن ى كيفما تركبت دارت مع معنى الخفاء... ومنه نكى فى العدو ينكى إذا أوصل إليه مضارا من حيث لا يشعر بها ، ومنه نكايات الزمان لمصائبه الملمة على بنيه من حيث لا يشعرون."

ثم فرق بين المجاز والكناية من وجهين :

الأول : أن الكناية لا تنافى إرادة الحقيقة بلفظها فلا يمتنع فى قولك:"فلان طويل النجاد" أن تريد طول نجاده من غير ارتكاب تأول مع إرادة طول قامته ، والمجاز ينافى ذلك فلا يصح فى نحو " رعينا الغيث" أن تريد معنى الغيث ، والمجاز ملازم لقرينة معاندة لإرادة الحقيقة .

الثانى : مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .

---

(١) المفتاح ص٢١٣ .

ثم قسم الكناية من حيث المطلوب إلى ثلاثة أقسام :

الأول : كناية يطلب بها موصوف ، وجعلها قريبة . وهى ما يتفق فى صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض ، فتذكرها متوصلا بها إلى ذلك الموصوف كقولك : جاءنى المضياف ، وتريد زيدا لعارض من اختصاص للمضياف بزيد

وبعيدة : وهى أن تتكلف اختصاص الكناية بأن تضم إلى لازم آخر ، وآخر حتى تلفق مجموعا وصفيا مانعا من دخول كل ما عدا مقصودك ، مثل أن تقول كناية عن الانسان : حى مستوى القامة عريض الأظفار .

الثانى : كناية يطلب بها نفس الصفة ، وجعلها أيضا قريبة ، وهى ما ينتقل فيها إلى المطلوب من أقرب لوازمه كما تقول : " فلان كثير أضيافه". والكناية التى يطلب بها صفة قد تكون واضحة لا تحتاج إلى تأمل ، وقد تكون خفية تحتاج إلى تأمل ودقة فهم كقولك : " فلان عريض القفا " كناية عن البلاهة .

وبعيدة : وهى التى ينتقل فيها من لوازم بواسطة لوازم متسلسلة كقولك : " فلان كثير الرماد " لأنك تنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ، ومن كثرة الجمر ، إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطبخ ، ومن كثرة الطبخ ، إلى كثرة الأكلة ، إلى كثرة الضيفان ، إلى أنه مضياف .

الثالث : كناية تخصيص الصفة بالموصوف ، وهى أيضا تتفاوت فى اللطف فتارة تكون لطيفة ، وأخرى تكون ألطف .

ثم قسم الكناية تقسيما آخر باعتبار مفهومها ، فإن كانت عرضية كقوله تعالى فى عرض الحال المتقين ﴿**هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب**﴾[1] إذ فسر الغيب بالغيبية بمعنى يؤمنون مع الغيبة عن حضرة النبى – صلى الله عليه وسلم – أو عن جماعة المسلمين ، على معنى هدى للذين يؤمنون عن إخلاص لا الذين يؤمنون عن نفاق ، فإن كان التعبير كذلك وبهذا المعنى كان إطلاق اسم التعريض عليه مناسبا .

---

(١) البقرة : ٢ ، ٣ .

وإذا كان التعبير بينه وبين المكنى عنه بعد التوسط عدة لوازم كما فى قولك " كثير الرماد " كان إطلاق اسم التلويح عليه مناسبا لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإن كانت المسافة بين الصورة والمكنى عنه قريبة مع شىء من الخفاء كما فى قولك : " عريض القفا ، وعريض الوسادة " كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسبا ، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية قال الشاعر فى هذا المعنى :

رمزت إليها مخافة من بعلها — من غير أن تبدى هناك كلامها

وإن لم يكن فى الصورة شىء من الخفاء كان إطلاق اسم الإيماء والإشارة عليهم مناسبا كقول أبى تمام :

أبين فما يزرن سوى كريم — وحسبك أن يزرن أباسعيد

فإن الصورة واضحة فى التعبير عن كرم أبى سعيد .

وكقول البحترى فى التعبير عن جود ابن يحيى وكرمه :

سألت الندى والجود مالى أراكما — تبدلتما ذلا بعز مؤبد

وما بال ركن المجد أمسى مهدما — فقالا : أصبنا بابن يحيى محمد

فقلت : فهلا متما عند موته — فقد كنتما عبديه فى كل مشهد

فقالا : أقمنا كى نعزى بفقده — مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

هذا ماقدمه السكاكى للكناية فى البلاغة العربية

وإن من يتأمل دراسة السكاكى للكناية ، يدرك أنها دراسة جافة قامت على الفلسفة والمنطق ، فقد اعتمد فيها السكاكى على العقل ، وبعد كل البعد عن الدراسة الأدبية التى تعتمد على الذوق والإحساس ، وتقوم على النقد والتحليل فقد وجه كل اهتمامه وصرف كل جهده إلى التقسيمات والتفريعات ، وأغرق فى المسائل الفلسفية والقضايا المنطقية ، حتى أصبحت هذه الصورة البيانية الجميلة فى كلامه كأنها قضية منطقية ، أو نظرية هندسية ، أو مسألة حسابية ، تكد الذهن و ترهق الفكر ، ليس فيها

ما يحرك شعورا ، أو يثير عاطفة . وللسكاكى عذره فـى ذلـك ، فلقـد تـأثر فـى دراسته للكناية بثقافته الفلسفية المنطقية .

ولكننا مع كل هذا لانجحد فضل السكاكى على هذه الصورة البيانية الجميلة فلقـد خطت على يديه بعض الخطوات التى تستحق التسجيل ، فقد عرفها تعريفا جامعـاً مانعاً ميزها عن غيرها من سائر الصور البيانية ، وإن كان قد تأثر فى هـذا التعريـف بمن سبقه من علماء البلاغة ، وبخاصة الإمام عبد القاهر الجرجانى كمـا أنـه قـد فـرق بينهمـا وبين المجاز ، وهذا عمل جليل قد انفرد به فلم يسبقه إليه أحـد وبذلـك نستطيع أن نقـول فـى اطمئنان إن هذه الصورة الجميلة قد تحددت معالمها وتميزت تميزا كاملا عن غيرها على يد السكاكى. وان كان قد ظلمها وجار عليهـا فأفقدهـا الكثير مـن حسـنها وجمالهـا حين ألبسها ثوبا قاتما من الفلسفة والمنطق .

ابن الأثير والكناية

ثم تحدث عن الكتابة بعد ذلـك " ابـن الأثـير المتوفـى ٦٣٧ هـ فـى كتابيـه "المثـل السائر والجامع الكبير" فبين أصل اشتقاقها فقال: "[١] واعلم بـأن الكنايـة مشـتقة مـن[٢] الستر يقال: كنيت الشىء اذا سترته ، وأجرى هذا الحكم[٣] فى الألفاظ التـى يسـتر بهـا المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر والمستور معاً .

وقيل إنها مشتقة من الكنية التى يقال فيها أبو فلان - أى ما صدرت بأب أو أم - فإذا نادينا رجلا اسمه عبدالله ، وله ولد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد كان ذلك مثل قولنا : ياعبد الله ، فإن شئنا ناديناه بهذا ، وإن شئنا ناديناه بهذا ، فكلاهما دال عليه ، وكذلـك يجرى الحكم فى الكناية ، فإذا شئنا حملناها على جـانب المجـاز ، وإن شـئنا حملناهـا علـى جانب الحقيقة ، إلا أنه لابد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية مـاليس منهـا ،

---

(١) المثل السائر جـ٢ ص٥٢ .

(٢) تعبيره بأنها مشتقة من الستر فيه شىء من التجاوز إذ إنها مشتقة من الكنى بمعنى الستر .

(٣) أى حكم الكناية .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿**إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة**﴾[1] ، فكنى بالنعجة عن النساء[2] والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ، ومن أجل هذا لا يلتفت إلى تأويل من تأول قوله تعالى: ﴿**وثيابك فطهر**﴾[3] أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع ، ولو كان بينهما وصف جامع لصح التأويل .

ثم استدل على اشتقاق الكناية من الكنى أو من الكنية بقوله : أما اشتقاقها من كنيت الشيء إذا سترته ، فإن المستور فيها هو المجاز ، لأن الحقيقة تفهم أولا ، ويسارع إليها الفهم قبل المجاز ، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية وأما المجاز فإنه يفهم بعد فهم الحقيقة ، وإنما يفهم بالنظر والفكر ، ولهذا يحتاج إلى دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ، فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى ، وهو مستور بالحقيقة وأما اشتقاقها من الكنية ، فلأن عبد الله في الصورة الماضية هو حقيقة هذا الرجل أي الاسم الموضوع إزائه أولا ، وأما أبو محمد فإنه طارىء عليه بعد عبد الله لأنه لم يكن له ، إلا بعد أن صار له ولد اسمه محمد ، وكذلك الكناية فإن الحقيقة لها هي الاسم الموضوع أولا في أصل الوضع، وأما المجاز فإنه طارىء عليها بعد ذلك ، لأنه فرع ؛ والفرع يكون بعد الأصل ، وإنما يعمد ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الأصل .

ثم عرف الكناية بقوله[4] . " وأما الكناية فقيل : هي اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع بوصف جامع بين الكنابة والمكنى عنه " .

ولكن هذا التعريف لم يعجبه فأبطله لجواز أن يكون حدا للتشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقي لجامع بين المشبه والمشبه به في وصف من الأوصاف .

---

(١) ص : ٢٣ .

(٢) الأولى أن يقال كنى بالنعجة عن المرأة .

(٣) المدثر : ٤

(٤) المثل السائر جـ٣ ص٥٠ .

ثم أورد تعريفا لعلماء الأصول الذين قالوا[1] : " الكناية هى اللفظ المحتمل" يريدون بذلك أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وخلافه، وأبطله أيضاً بقوله : ليس كل لفظ يدل على المعنى وخلافه كناية ، فقول النبى صلى الله عليه وسلم :" إذا لم تستح فافعل ماشئت " يدل على المعنى وعلى خلافه ، فأحد معنييه : إنك إذا لم يكن لك وازع يزعك عن الحياء فافعل ماشئت ، والآخر: إذا لم تفعل فعلا يستحى منه فافعل ما شئت . وهذا ليس من الكناية فى شىء . ثم عرفها بتعريف ظن أنه جامع مانع فقال[2] : " وإذا كان الأمر كذلك ، فحد الكناية الجامع لها هو "أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز" .

وبالتأمل فى هذا التعريف نجد أنه وثيق الصلة بمعنى الكناية فى اللغة ، إذ إنها فى أصل الوضع أن تتكلم بشىء ، وتريد غيره . يقال : كنيت بكذا عن كذا ، فهى تدل على ماتكلمت به ، وعلى ماأردته فى غيره ؛ وأنها مشتقة من الكنى بمعنى الستر .يقال: كنيت الشىء إذا سترته ، وأجرى هذا الحكم فى الألفاظ التى يستتر بها المجاز بالحقيقة : فتكون دالة على الساتر والمستور معا .

ثم قسم ابن الأثير الكناية من حيث استعمالها إلى :

١- حسنة: وأورد لها كثيرا من الشواهد[3] من القرآن والسنة ، ومنثور كلام العرب .

ومنظومه ، ومن هذه الشواهد قوله تعالى : ﴿ أولامستم النساء﴾[4] ثم علق عليه بقوله : " فإنه إن حمل على الجماع كان كناية ، لأنه ستر الجماع بلفظ اللمس الذى حقيقته مصافحة الجسد الجسد ، وإن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ، و لم يكن كناية ، وكلاهما يتم به المعنى ، ولهذا ذهب الإمام الشافعى إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ، وذلك

---

(١) المثل السائر جـ٣ ص٣١ .

(٢) المثل السائر جـ٣ ص٥٢ تحقيق الدكتورين الحوفى وطبانة .

(٣) المثل السائر ص٦٢ ، ٦٥، ٦٧، ٦٨ ج٣ تحقيق الدكتورين الحوفى وطبانة .

(٤) النساء : ٤٣ .

هو الحقيقة فى اللمس ، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية .

ومن هذه الشواهد أيضا قوله تعالى : ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها﴾[1] ثم بين موضع الكناية فى الآية الكريمة بقوله : والأرض التى لم تطؤها كناية عن " مناكح النساء " .

ومن الشواهد النبوية التى أوردها قول النبى (صلى الله عليه وسلم) " رويدك سوقك بالقوارير "[2] ثم بين موضع الكناية بقوله : " يريد بذلك النساء ، فكنى عنهن بالقوارير " .

ومن شواهده النبوية أيضا ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه جاء إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) فقال يارسول الله : هلكت ، قال : وما أهلكك ؟ قال : حولت رحلى البارحة ، فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) أقبل ، وأدبر ، واتق الدبر والحيضة" .

ومن شواهده التى أوردها من المنثور ماروى أن امرأة جاءت لعائشة رضى الله عنها – فقالت لها : أقيد جملى ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها " لا " ثم علق على الشاهد مبينا موضع الكناية فقال :" أرادت المرأة أن تضع لزوجها شيئا يمنعه عن غيرها ، أى تربطه أن يأتى غيرها . فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل ، وباطنه ما أرادته المرأة ، وفهمته عائشة "

---

(١) الأحزاب : ٢٧ .

(٢) قاله النبى صلى الله عليه وسلم لغلام أسود اسمه أنجشة كان يحدو بالنساء ركابهن فى بعض أسفاره ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن ، فأمره بالكف عن نسيبه وحدائه حذار صبوتهن إلى غير الجميل ، وقيل إن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت فى السير واشتدت فأزعجت الراكب فأتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة " لسان العرب مادة قرر والنهاية لابن الأثير جـ٣ ص٢٤٠ .

ومن ذلك ما روى أن عمرو بن العاص -رضى الله عنه - زوج ولده عبد الله رضى الله عنه فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يدن منها ، وإنما كان ملتفتا إلى صلاته ، فدخل عمرو بعد ثلاث ، فقال : كيف ترين بعلك؟ فقالت : نعم البعل ، إلا أنه لم يفتش لنا كنفا ، ولا قرب لنا مضجعا".

ثم بين ابن الأثير الكناية فى قول المرأة ووصفها بالحسن والجودة فقال: فقولها " لم يفتش لنا كنفا ، ولا قرب لنا مضجعا " من الكناية الغراء الظاهرة .

ومن أمثال العرب التى أوردها ، واستشهد بها على الكناية قولهم : "إياك وعقيلة الملح" ثم بين الكناية فى المثل بقوله : " وذلك كناية عن المرأة الحسناء فى منبت السوء، فإن عقيلة الملح هى اللؤلؤة تكون فى البحر ، فهى حسناء ، وموضعها ملح " .

وقولهم : " لبس له جلد النمر " كناية عن العداوة .

ومن شواهده التى أوردها من المنظوم قول أبى تمام فى قصيدته التى يستعطف بها مالك بن طوق على قومه والتى مطلعها :

" أرض مصردة ، وأرض منجم "(١)

مالى رأيت ترابكم يبس الثرى ... مالى أرى أطوادكم تتهدم

ثم بين الكناية فى البيت بقوله : " فيبس الثرى كناية عن تنكر ذات البين ، تقول: يبس الثرى بينى وبين فلان ، إذا تنكر الود الذى بينك وبينه ، وكذلك تهدم الأطواد ، فإنه كناية عن خفة الحلوم ، وطيش العقول ".

وقول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى يعاتب فيها سيف الدولة ابن حمدان التى مطلعها : " واحر قلباه ممن قلبه شم " :

وشر ما قنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

ثم علق على البيت بقوله :" يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوى فى المنال منه

(١) مصردة : قليلة الرى والمطر - منجم : تدوم عليها المطر .

هو وغيره ، فهو البازى ، وغيره الرخمة .

٢- قبيحة ، وأورد لها كثيرا من الشواهد[١].

ثم أشار إلى أن الكناية وردت فى غير اللغة العربية فقال[٢] : " ووجدتها فى اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذى فى أيدى النصارى قد أتى منها بالكثير ، ومما وجدته فى الكناية فى لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة[٣] كسرى ، وخواصه ، فقيل له : إن الملك يختلف إلى امرأتك ، فهجرها لذلك وترك فراشها ، فأخبرت كسرى ، فدعاه، وقال له : قد بلغنى أن لك عينا عذبة وأنك لا تشرب منها فما سبب ذلك ؟ قال أيها الملك : بلغنى أن الأسد يردها فخفته . فاستحسن كسرى منه الكلام وأجزل عطاءه "

ثم تحدث عن التعريض ، وفرق بينه وبين الكناية فقال: " وأما التعريض فهو الدال على الشىء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : وا لله إنى لمحتاج ، وليس فى يدى شىء ، وأنا عريان ، والبرد قد آذانى ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا، إنما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة الكناية فى أية صورة مما مضى. ويؤكد هذه التفرقة بقوله أيضا[٤] . والتعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا بالمجازى ثم علل لسبب تسميته بالتعريض فقال:

"وإنما سمى التعريض لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى جانبه - وعرض الشىء جانبه". ثم استرسل فى توضيح الفرق بين الكناية والتعريض فقال: "كما أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما

---

(١) المثل السائر جـ٣ ص٧٠ وما بعدها .

(٢) المثل السائر جـ٣ ص٧٥ .

(٣) الأساورة جمع أسوار بضم الهمزة وكسرها : وهو القائد من الفرس أو هو الفارس .

(٤) المثل السائر جـ٣ ص٥٧ .

التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى من اللفظ المفرد ألبتة ، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، وإنما يفهم من جهة البلوغ والإشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب" .

وبالتأمل فى كلام ابن الأثير نستطيع أن نقول فى إيجاز إن الفرق بين الكناية والتعريض عند ابن الأثير يتلخص فى ثلاثة أمور :

١- التعريض: اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى، والكناية كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقية والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

٢- دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ، ولا المجازى ، لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى من جانبه .

٣- الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد ألبتة .

هذا ما قدمه ابن الأثير للكناية فى البلاغة العربية ، ولقد اتجه فى دراسته لها اتجاها أدبيا ، اعتمد فيه على ذوقه وحسه ، فأكثر من الشواهدالأدبية ، وخرجها تخريجا حسنا ، وحللها تحليلا جميلا ؛ جمع فيه بين الروعة الأدبية والدقة العلمية ، وبين الحسن منها والقبيح ، مع الإقلال من القواعد والابتعاد عن الإغراق فى التقسيمات والتفريعات. وبذلك نستطيع أن نقول إن ابن الأثير قد وضع أسس اتجاه جديد فى البلاغة ، فى زمن اتجهت فيه البلاغة على يد السكاكى إلى التقعيد والتقنين والإغراق فى التقسيمات والتفريعات .

كما امتازت دراسته للكناية بالإحاطة والشمول ، فلم يكتف بدراستها فى اللغة العربية كما فعل غيره من العلماء السابقين ، بل تعدى هذا إلى دراستها فى اللغة السريانية والفارسية وإن كنت آخذ عليه أنه لم يكشف القناع عن بلاغة الكناية ، ولم يحدثنا عن أثرها فى الأساليب العربية .

ابن أبى الإصبع والكناية

ثم تحدث عن الكناية " ابن أبى الإصبع المصرى " المتوفى سنة ٦٥٤هـ فى كتابيه "تحرير التحبير ، وبديع القرآن " فعرفها بقوله : "هى عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن النجس بالطاهر، وعن الفاحش بالعفيف[١] " هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن العيب ، وقد يقصد بالكناية غير ذلك ، وهو أن يعبر عن الصعب بالسهل ، وعن البسط بالإيجاز ، أو يأتى للتعمية والإلغاز، أو للستر والصيانة". ثم أورد لها كثيراً من الشواهد من القرآن ، والحديث ، وجيد الشعر للجاهليين والمحدثين ، مخرجا تلك الشواهد ، مبينا موضع الشاهد فيها.

ومن شواهده التى أوردها قوله تعالى :"كانا يأكلان الطعام"[٢] ثم بين الكناية فى الآية الكريمة بقوله: " كناية عن الحدث لأنه ملازم أكل الطعام"[٣]

وقوله تعالى :"أو جاء أحد منكم من الغائط"[٤] ثم علق على الآية بقوله:" لأنه[٥] المنخفض من الأرض الذى يقصد لقضاء الحاجة . فسمى الحدث باسم موضعه "

وقوله تعالى: "ولكن لاتواعدوهن سرا"[٦] كناية عن الجماع ، وقوله تعالى : "وقد أفضى بعضكم إلى بعض"[٧] كناية عن المباضعة .

ودراسة ابن أبى الإصبع المصرى للكناية دراسة جديدة وفريدة ، فهى دراسة أدبية

---

(١) تحرير التحبير ص١٤٣ ، وبديع القرآن ص٥٣ .

(٢) سورة المائدة : ٧٥ .

(٣) بديع القرآن ص٥٣ .

(٤) سورة النساء : ٤٣ .

(٥) أى الغائط .

(٦) سورة البقرة : ٢٣٥ .

(٧) سورة النساء : ٢١ .

رائعة جميلة ، تهدف إلى الكشف عن الفوائد الأدبية التى تكمن فى الصور البلاغية ، فابن أبى الإصبع درس الكناية على أنها صورة أدبية ، وطريق من طرق التعبير الفنى الجميل التى يسلكها الأديب للتعبير عما يجول فى نفسه من المعانى ، ويجيش فى صدره من الخواطر ، وقد استطاع بمهارته الأدبية ، ودقته الفنية أن يكشف القناع عن فوائد الكناية ، وحصرها فيما يلى:-

١- التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن .
٢- التعبير عن النجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف .
٣- التعبير عن الصعب بالسهل .
٤- الإيجاز .
٥- الستر والصيانة .
٦- التعمية والإلغاز .

والعجيب أن هذه الدراسة الأدبية الرائعة التى اتجه إليها ابن أبى الإصبع تأتى فى وقت قد اتجهت فيه البلاغة على يد السكاكى إلى التقعيد والتقنين، ولكن لا غرابة ولا عجب أن يتجه ابن أبى الإصبع إلى هذه الدراسة ، فهو أديب مطبوع ، وناقد فذ ، قد حباه الله ذوقا رقيقا ، وذهنا صافياً ، وحساً مرهفا ، وخيالا خصباً ، كما أنه نشأ فى البيئة المصرية الجميلة الساحرة ، والتى خلت أرضها الطيبة من الفلسفة والمنطق.

وهذا الاتجاه الأدبى ، وإن كان قد وضع أسسه ابن الأثير كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء حديثنا عن الكناية عند ابن الأثير ، إلا أن ابن أبى الإصبع لم يقف عند حد الأسس التى وضعها ابن الأثير ؛ بل تعدى ذلك إلى شىء جديد هو الكشف عن الفوائد الأدبية التى تكمن فى الصور البلاغية ، وهذا الكشف الجديد قد غاب عن ابن الأثير ، وتوصل إليه ابن أبى الإصبع وانفرد به ، فهو من جديده الذى لم يسبق إليه .

عز الدين بن عبد السلام والكناية

ثم تحدث عن الكناية الشيخ عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ فى

كتابه "الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز"فقال[١] :"النوع السادس عشر الكنايات كما جاء فى قول إحدى النسوة فى حديث أم زرع " زوجى رفيع العماد ، طويل النجاد، عظيم الرماد ، قريب البيت من النار"

ثم أخذ فى بيان الكنايات فى الحديث فقال :" كنت برفعة عماده عن شرفه ومنزلته ؛ لأن من طالت قامته طال نجاد سيفه ، وكنت بعظم رماده عن كثرة ضيافته ، وإطعامه ؛ لأن الرماد لا يعظم إلا عن كثرة الطبخ والإحراق للحطب الكثير ، وكنت بقرب بيته من المجلس عن كرمه لأن البخلاء كانوا يبعدون بيوتهم عن المجلس كيلا يستتبعون الأضياف منه ، وكانوا ينزلون فى المواضع المنخفضة كيلا يراهم الضيفان فيأتونهم، ولذلك قال طرمة :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد[٢]

ثم بين أن الكناية ليست من المجاز فقال: " والظاهر أن الكناية ليست من المجاز لأنها[٣] استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأرادت به الدلالة على غيره ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب فى مثل قوله تعالى: "فلا تقل لهما أف"[٤] وفى مثل نهيه عن التضحية بالعوراء والعرجاء "

ودراسة الشيخ عز الدين بن عبد السلام للكناية تسير فى نفس الاتجاه الأدبى الذى وضع أسسه ابن الأثير ، ونماه وجدد فيه ابن أبى الإصبع المصرى فقد أورد حديث أم زرع وكشف عما فيه من الكنايات بأسلوب جمع فيه بين الروعة الأدبية والدقة العلمية . إلا إننى آخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية تتميز به عن غيرها من الصور البلاغية كما أنه لم يحدثنا عن فوائد الكناية كما فعل ابن أبى الإصبع المصرى من قبله كما آخذ عليه

---

(١) انظر ص٨٥ من كتاب الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز.

(٢) التلاع : جمع تلعة ، وهى من الأضداد يطلق على الارتفاع والانخفاض .

(٣) أى أم زرع .

(٤) الإسراء : ٢٣ .

قلة الشواهد الأدبية -فقد اكتفى بحديث أم زرع وكنت أنتظر منه وهو الأديب الأريب والعالم المدقق والناقد الخبير أن يكثر من الشواهد الأدبية وأن يتناولها بالنقد والتحليل مبينا مافيها من الجودة والحسن أو الرداءة والقبح معللا أسباب ذلك .

النويرى والكناية .

ثم تحدث عن الكناية بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام"النويرى"(١) المتوفى سنة ٧٣٣هـ فى كتابه " نهاية الأرب " فعرفها بقوله(٢) : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيومىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه" ، ثم أورد لها بعض الشواهد الأدبية من القرآن الكريم والشعر ، ومن الشواهد التى أوردها قوله تعالى : "إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم"(٣) ثم كشف عن الكناية فى الآية الكريمة بقوله: كنى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر" .

ومن الشواهد الشعرية التى أوردها قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما النوفل . أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم بين موضع الكناية فى البيت بقوله :" أراد أن يذكر جيدها ، فأتى يتابعه وهو مهوى القرط"

ومن شواهده الشعرية أيضا قول ليلى الأخيلية:

ومخرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيماً

ثم بين الكناية فى البيت بقوله:" كنت عن جوده بخرق القميص من جذب العفاة له

---

(١) هو الإمام البحاثة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد عبد الدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى المولود بقوص سنة ٦٧٧ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٣هـ .

(٢) نهاية الأرب حـ٧ ص٥٩ .

(٣) آل عمران : ٩٠ .

عند ازدحامهم لأخذ العطاء"

ثم ذكر أن الكناية قد تكون فى المثبت كما فى الأمثلة السابقة، وقد تكون فى الإثبات ثم عرف الكناية فى الإثبات بقوله:" وهى ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعانى لشئ فيتركون التصريح بإثباتة له، ويثبتونه لما له به تعلق " ثم مثل لها بقولهم:"المجد بين ثوبه، والكرم بين برديه" وقول زياد الأعجم:

إن المروة والسماحة والندى   فى قبة ضربت على ابن الحشرج

ثم بين أن الكناية ليست من المجاز فقال(١) :" واعلم أن الكناية ليست من المجاز لأنك تعتبر فى ألفاظ الكناية معانيها الأصلية، وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود فتريد بقولك ذكر الرديف ، وإرادة المردوف"

ثم فرق بينها وبين التعريض بأن التعريض : تضمين الكلام دلالة ليس لها ذكر كقولك:" ماأقبح البخل" لمن تعرض ببخله(٢) والنويرى فى دراسته للكناية قد تأثر بالشيخ عبد القاهر الجرجانى، فتعريفه للكناية هو تعريف عبد القاهر، وشواهده هى شواهده، كما تأثر فى دراسته أيضا بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقد نفى أن تكون الكناية من المجاز متابعا فى ذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وقد علل نفى المجاز عنهابنفس التعليل الذى ذكره عز الدين بن عبد السلام مع الاختلاف فى الصياغة وبذلك نستطيع أن نقول إن النويرى لم يضف إلى الكناية جديدا يذكر فقد ترسم خطا الشيخين عبد القاهر الجرجانى وعز الدين بن عبد السلام وإنى آخذ عليه قلة الشواهد الأدبية مع أنه أديب ذواقة قد منحه الله ذوقا رقيقا، وذهنا صافيا، كما آخذ عليه عدم تعليقه على بعض الشواهد التى أوردها، وعدم تناوله هذه الشواهد بالنقد والتحليل.

---

(١) نهاية الأرب ج٧ ص٦٠ .

(٢) نهاية الأرب ج٧ ص٦٠ .

الخطيب القزوينى والكناية

ثم تحدث عن الكناية " الخطيب القزوينى " المتوفى سنة٧٣٩هـ فى كتابه" الإيضاح" فعرفها بقوله(١) :" الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ"

ثم فرق بينهما وبين المجاز، بأن الكناية يجوز فيها إرادة المعنى مع إرادة لازمة والمجاز لايجوز فيه ذلك لأنه ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة، وملزوم معاند الشئ معاند لذلك الشئ، فلا يصح فى قولنا: فى البيت أسد أن نريد معنى الأسد من غير تأويل.

ثم قسم الكناية بحسب المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام:-

١- قسم يطلب به موصوف .
٢-قسم يطلب به صفة .
٣- قسم يطلب به نسبة .

ثم قسم كل نوع إلى قريب وبعيد .

وقد ترسم فى هذا التقسيم خطا السكاكى ودراسة الخطيب القزوينى للكناية تسير فى الاتجاه الذى رسمه السكاكى والذى مزق به أوصال البلاغة العربية، وسلبها حسنها وجمالها، وأفقدها بهاءها ورواءها فهو لم يزد فى دراسته للكناية عما قاله السكاكى، و لم يقدم جديدا يستحق الذكر والتسجيل .

العلوى والكناية:

ثم تحدث عن الكناية بعد الخطيب القزوينى"أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى اليمنى" المتوفى سنة ٧٤٩هـ، فى كتابه" الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق التنزيل" فأماط اللثام عن منزلتها فى البيان العربى فقال:": اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة وركن من أركان المجاز(٢) "

(١) انظر ص ٢٣١ من كتاب الإيضاح .

(٢) انظر ص٣٦٤.

ثم كشف عن حقيقتها فى لسان أهل اللغة فقال:" الكناية مصدر كنى يكنى وكنيته تكنيه حسنة، ولامها واو، وياء، يقال: كناه يكنيه، ويكنوه[1] "ثم كشف أيضا عن حقيقتها فى لسان أهل اللغة فقال:" الكنايةمقولة على ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره"وأنشد الجوهرى لأبى زياد:

وإنى لأكنو عن قذور بغيرها　　　وأعرب أحيانا بها فأصارح

والكنية - بالضم والكسر فى فائها - واحدة الكنى،واشتقاقها من الستر يقال: كنيت الشئ.إذا سترته، وإنما أجرى هذا الاسم على هذا النوع من الكلام لأنه يستر معنى ويظهر غيره[2]"

ثم كشف عن حقيقتها عند علماء البيان فذكر تعريفاتهم، وناقشها مناقشة الأديب المتذوق والعالم المدقق، فذكر تعريف الشيخ عبد القاهر لها وهو : "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ،فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"

وبين أنه فاسد لأمور ثلاثة:-

١- الأمر الأول: أن قوله"تاليه" إما أن يريد به مثله فهو خطأ فإن الكناية ليست مماثلة لما كان من اللفظ الذى ترك بالكناية، وإما أن يريد معنى آخر فيجب ذكره حتى تنظر فيه إما بصحه أو فساد.

٢- الأمر الثانى: أن قوله:" فيومئ به" ليس يخلو الإيماء إما أن يكون على جهة الحقيقة أو على جهة المجاز ، فلفظة الإيماء محتملة لما ذكرناه، وليس فى الإيماء إشارة إلى أحدالوجهين، فلابد من بيان أحدهما، وإلا كان كلاما مجملا لا يفيد فائدة وهو مجانب لصناعة الحدود.

٣- الأمر الثالث: أن هذا التعريف ليس مانعا، لأنه يدخل الاستعارة فى الكناية ، لأن

---

(١) انظر ص٣٦٥ .

(٢) الطراز ص٣٦٦ .

قولك:"رأيت أسدا ولقيت بحرا"قد تركت فيه اللفظ الموضوع للشجاعة والكرم، وأتيت بتاليهما، وأومأت إليه"(١)

ثم ذكر تعريف ابن الأثير الذى حكاه عن بعض علماء البيان، وارتضاه وهو" اللفظ الدال على الشئ بغير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه" وأبطله بثلاثة أمور:

١- الأمر الأول : أن هذا يبطل بالتشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى فى وصف من الأوصاف كقولنا " كأن زيدا الأسد" فأدخل فيه ما ليس منه.

٢- الأمر الثانى: أن الكناية لا تفتقر إلى جامع ، فإننا إذا قلنا:" فلان كثير رماد القدر" وجعلنا هذا دلالة على كونه كريما، فهو غير محتاج إلى ذكر جامع ، فاعتبار ذكر الجامع فى الكناية يخرجها عن حقيقة وضعها، ويبطل فائدتها.

٣- الأمر الثالث: أنه ذكر الكناية والمكنى عنه فى حد الكناية، وهذا فيه تفسير الشئ بنفسه، وإحالة بأحد المجهولين على الآخر فهو باطل(٢)

ثم ذكر تعريف ابن سراج المالكى فى كتابه" المصباح وهو : "ترك التصريح بالشئ إلى مساويه فى اللزوم لينتقل فى اللزوم منه إلى الملزوم"

وبين وجه فساده بأمرين:-

١-**الأول** : أن ما ذكره حاصل فى الاستعارة فى نحو قولك:"رأيت الأسد ولقيت البحر" فإنك تركت التصريح بقولك:" لقينى الشجاع" إلى لفظ " الأسد" والكريم إلى لفظ " البحر" والكناية مخالفة للاستعارة فى ماهيتها، فلا يخلط أحدهما بالآخر.

٢- **الثانى** : أن قوله:"إلى مساويه فى اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم" إن أراد بالملزوم ،

---

(١) الطراز ص٣٦٧ .

(٢) الطراز ص٣٦٩ .

المدلول فذكر المدلول أوضح، فلاحاجة إلى العدول عنه، وإن أراد به معنى آخر غير المدلول فهو خطأ، لا فائدة فيه لأنه لا مشاركة بينهما، إلا فى مدلولها لا غير، ولهذا كان كناية عنه. ثم التمس له العذر لأنه كان مولعا بممارسة المنطق ، ومعالجته فغلبت عليه عباراته[1] .

ثم ذكر تعريفا حكاه ابن الأثير عن بعض الأصوليين وهو "إنهااللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه" .

وبين فساده بأمرين :

١- **الأول** : أن ما قاله يبطل باللفظ المشترك فى نحو قولك:"قرء،وشفق" فإن كل واحد منها دال على معنى ، وعلى خلافه.

٢- **الثانى** : أن ماذكره يبطل بالحقيقةوالمجاز ، فإن قولنا ": أسد وبحر"كمايدل على ماوضع له بالحقيقة فهو دال على ما استعمل فيه من المجاز فيلزم أن يكون ما ذكرناه من الكنايه وهوباطل[2].

ثم ذكر تعريف ابن الخطيب الرازى فى كتابه" نهاية الإيجاز" وهو " اللفظ الدال على معنى مقصود مع ملاحظة معناه الأصلى".

وأبطله بأمرين:-

١- **الأول** : أنه فاسد بالاستعارة، فإنها دالة على معنى مقصود مع ملاحظه معناه الأصلى ، فيلزم على ما قاله دخولها فىالكناية

٢- **الثانى** : أنه يبطل بالحقيقة مع مجاز ها، فإنه ما من مجاز يدل علىمعنى ، إلا وهو دال

(١) الطراز ص٣٧٠ .

(٢) الطرازص ٣٧١ .

على حقيقته، و فى هذا دخول أنواع المجاز فى الكناية وهذا باطل[1]

ثم ذكر تعريف ابن الأثير نفسه وهو " كل لفظ دال على معنى ، يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز".

وأظهر فساده بثلاثة أمور:

١ - **الأول** : أن قوله:" معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز" خطأ ، لأن المعنى الواحد لايجوز أن يكون حقيقة ومجازا ، لاجتماع النفى والإثبات فيه، لأنه يصير حقيقةليس حقيقة وهو باطل، بل الحق فى الكناية أنهما معنيان، أحدهما حقيقة، والآخر مجاز ، وظاهر كلامه أنهما معنى واحد.

٢-**الثانى** : أن ما ذكره يبطل بالاستعارة فى مثل قولنا : فلان أسد وبحر" فإن قولنا : أسد كما يدل بحقيقته على السبع، فهو دال بمجازه على الشجاعة فيجب دخوله فى حد الكناية.

٣- **الثالث** : أن قوله:" بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز"يدخل فيه التشبيه فإنه لابد فيه من اعتبارأمر جامع بخلاف الكناية،فإنها لاتفتقر إلى ذكر الجامع، فاعتبار قيد الوصف الجامع يدخلها فى التشبيه، ويخرجها عن حقيقتها[2] .

ثم عرف الكناية بقوله[3] : " هى اللفظ الدال على معنيين مختلفين حقيقة ومجازا من غير واسطة لا على جهة التصريح"

ثم شرح التعريف فقال: " فقولنا:" اللفظ الدال" يحترز به عن التعريض فإنه ليس مدلولا عليه بلفظ، وإنما هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى، وقولنا:" على معنيين"

---

(١) الطراز ص ٣٧١ .

(٢) الطراز ص٣٧٣ .

(٣) الطراز ص٣٧٤ .

يحترز به عما يدل على معنى واحد، فإنه ليس كناية، ويدخل فيه اللفظ المتواطئ كرجل وفرس، واللفظ المشترك كقولنا" قرء وشفق" فإنهما دالان على معنيين، وقولنا:" مختلفين" يخرج عنه المتواطئ فإن دلالته على أمور متماثلة، وقولنا: "حقيقة ومجازا" يحترز به عن اللفظ المشترك، فإن دلالته على ما يدل عليه من المعانى على جهة الحقيقة لا غير وقولنا:" من غير واسطة" يحترز به عن التشبيه، فإنه لابد فيه من أداة التشبيه إماظاهرة وإما مضمرة" وقولنا:" على جهة التصريح" يحترز به عن الاستعارة فإن دلالتها على ماتدل عليه من جهة صريحها، إما من غير قرينة، كدلالة الأسد على الحيوان، وإما مع القرينه كدلالة الأسد على الشجاع، فكلاهما مفهوم من جهة التصريح بخلاف الكناية، فإن الجماع ليس صريحا من قوله تعالى:"فأتوا حرثكم"[1] وإنما هو مفهوم على جهة التبع.

ثم فرق بين الكناية والاستعارة بثلاثة أمور[2] :-

١- **الأمر الأول** : الاستعارة عامة، والكناية خاصة، فكل استعارة كناية، وليس كل كناية استعارة.

٢- **الأمر الثانى** : الكناية يتجاذبها أصلان، حقيقة ومجاز، وتكون دالة عليهما معا عند الإطلاق ، بخلاف الاستعارة ، فإن لفظ" الأسد" يستعمل فى" السبع" فيكون دالا عليه، ثم يستعمل فى " الشجاع" فيكون دالا عليه، فأما الكناية فهى دالة على الحقيقة والمجاز جميعا عند الإطلاق.

٣- **الأمر الثالث** : أن لفظ الاستعارة صريح، ودلالتها على ماتدل عليه من الحقيقة والمجاز على جهة التصريح،بخلاف الكناية فإن دلالتها على معناها المجازى ليس من جهة التصريح ؛ بل من جهة الكناية .

ثم فرق بين الكناية والتعريض من أوجه ثلاثة[3] :-

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٣ .

(٢) الطرازص ٣٧٨- ٣٧٩ .

(٣) الطراز ص ٣٩٧-٣٩٨ .

١ - **الوجه الأول** : أن الكناية واقعة فى المجاز ومعدودة منـه، بخلاف التعريـض فـلا يعـد منه، وذلك من أجل كون التعريض مفهوما من جهة القرينة، فلا تعلق له بـاللفظ، لا من جهة حقيقتة، ولا من مجازه .

٢- **الوجه الثانى** : أن الكناية تقع فى المفرد والمركب، بخلاف التعريض فإنه لا موقـع لـه فى باب اللفظ المفرد .

٣- **الوجه الثالث** : أن التعريض أخفىمـن الكنايـة،لأن دلالةالكنايـة مدلـول عليهـا مـن جهة اللفظ بطريق المجاز، بخلاف التعريض فإن دلالتـه مـن جهـة القرينـة والإشـارة ، ولاشك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه فهوأوضح مما يدل عليـه بـاللفظ، وإن علـم بدلالة أخرى .

ثـم اسـتدل علـى الفـرق الثـالث بمـا ورد عـن علمـاء الشـريعة فـى التفرقـة بـين صريح القذف وكنايتة وتعريضه ، فقال:" ومن أجل هذا فرق علماء الشريعة بين صريح القذف وكنايتة وتعريضة، فأوجبوا فى الصريح من القذف الحد مطلقا فى قولك: يازانى، وأوجبوا فى كنايته الحد إذا نوى به فى مثـل قولـك : "يافـاعلاً بأمـه ويـامفعولاً بـه" ولم يوجبوا فى التعريض لحد فى مثل قولك : "يا ولد الحلال" وماذاك إلا لأجـل أن التصريـح والكناية يدلان على القذف من جهة اللفظ إما بالحقيقة أو بالمجاز .

ثم أورد للكنايةكثيرا من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومنثـور كـلام العرب ومنظومه، وبين ما تشتمل عليه هذه الشواهد مـن الكنايـات وحللهـا تحليـلا أدبيـا رائعا[1] ، يدل على معرفة تامة بالأساليب العربية، وخبرة واسعة بأسرار الكلام ودقائقـه، وأهدافه ومقاصده .

إلا أننى لاحظت عليه أن أكثر شواهده قد نقلها من المثل السائر لابن الأثير .

ودراسة العلـوى للكنايـة دراسـة تمتـاز بالإحاطـة والشـمول، وتقـوم علـى العقـل، وتعتمد فى أغلب الأحيان على الفلسفة والمنطق، فقد اطلع على جهود القدماء، ثم تناولها

(١) انظر الطراز من ص ٤٠٠ إلى ص ٤٢٦ .

بالنقد الفلسفى المنطقى ، ثم أدلى بدلوه فى النهاية ، فوضع للكناية تعريفا جامعا مانعا، يدل على تمكنه من المنطق ، وخبرته التامة بحدوده ورسومه وقضاياه ، ثم فرق بين الكناية والاستعارة ، وهذا من جديده الذى لم يسبق إليه ، فلم نر أحدا من القدماء قد تعرض للفرق بينهما ، وإن كانت الفروق التى ذكرها تبدو عليها الصبغة المنطقية الفلسفية ، ثم فرق بين الكناية والتعريض ، وقد سبقه إلى ذلك ضياء الدين بن الأثير كما أشرت إلى ذلك أثناء حديثى عن الكناية عند ابن الأثير .

وإن من يتأمل دراسة العلوى للكناية يرى أنها لا تسير فى الاتجاه الأدبى الخالص ولا الكلامى البحت ، ولكنها تسير فى اتجاه جديد يمتزج فيه الاتجاهان الأدبى والكلامى ، وإن كان المنهج الكلامى أكثر وضوحا فى دراسته من المنهج الأدبى . فقد ركز كل اهتمامه على نقد تعريفات السابقين ، وأهمل الناحية الجمالية.

وبذلك نستطيع أن نقول إن الجديد الذى قدمه العلوى للكناية ينحصر فيما يلى :

١- الفرق بين الكناية وبين الاستعارة .
٢- وضع تعريف جديد للكناية يختلف عن تعريفات السابقين ، ويميزها تميزا تاما عن جميع ماعداها من الصور البلاغية .
٣- الاتجاه الذى سلكه فى دراستها اتجاه يكاد يكون جديدا ، فهو مزيج من الاتجاهين الأدبى والكلامى .

ويؤخذ عليه أنه لم يبين لنا الحسن منها والقبيح والجيد والردىء ، بل اكتفى بنقل شواهد ابن الأثير التى أوردها فى كتابه المثل السائر و لم يعلق عليها أو يتناولها بالتحليل والنقد الأدبى ، كذلك يؤخذ عليه أن تعريفه الذى ذكره فى النهاية وإن كان جامعا مانعا، إلا أنه أعمل أثر العاطفة فى رسم الصورة الجمالية بالكناية.

الزركشى والكناية

ثم تحدث عن الكناية " الزركشى " المتوفى سنة ٧٩٤ هـ فى كتابه "البرهان فى[1]

(١) انظر ص٣٠١ من ج٢ من كتاب البرهان فى علوم القرآن .

علوم القرآن " فذكر أنها عند علماء البيان " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيومىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، فيدل على المراد من طريق أولى " .

ثم ذكر أقوال العلماء فى أنها حقيقة أو مجاز فقال: " قال الطرسوسى(1) فى العمدة " قد اختلف فى وجود الكناية فى القرآن ، وهو كالخلاف فى المجاز ، فمن أجاز وجود المجاز فيه أجاز الكناية ، وهو قول الجمهور ، ومن أنكر ذلك أنكر هذا "

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : " الظاهر أنها ليست بمجاز ، لأنك استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأردت به الدلالة على غيره ، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب فى مثل قوله تعالى : " فلا تقل لهما أف "(2) .

ثم ذكر أسباب(3) الكناية ، وأجملها فيما يلى :-

١- التنبيه على عظم القدرة كقوله تعالى : "هو الذى خلقكم من نفس واحدة"(4) كناية عن آدم عليه السلام .

٢- فطنة المخاطب كقوله تعالى فى قصة داود عليه السلام : "خصمان بغى بعضنا على بعض"(5) فكنى داود بخصم على لسان ملكين تعريضاً ، وقوله تعالى فى قصة النبى صلى الله عليه وسلم ، وزيد " ماكان محمد أبا أحد من رجالكم(6) أى " زيد "

---

(1) هو نجم الدين إبراهيم بن على الطرسوسى المتوفى سنة ٧٥٨ هـ ذكره صاحب كشف الظنون .

(2) الإسراء :٢٣ .

(3) انظر ص٣٠٢ وما بعدها من ج٢ من كتاب البرهان فى علوم القرآن .

(4) الأعراف : ١٨٩ .

(5) صٓ : ٢٢ .

(6) الأحزاب : ٤٠ .

ولكن رسول الله " وقوله تعالى ."**فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة**"(١) فإنه كناية عن ألا تعاندوا عند ظهور المعجزة ، فتمسكم هذه النار العظيمة .

٣- ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه كقوله تعالى : ﴿ **إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة** ﴾(٢) فكنى بالنعجةعن المرأة ، كعادة العرب فى أنها تكنى بها عن المرأة وقوله تعالى : ﴿ **إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة** ﴾(٣) كنى بالتحيز عن الهزيمة ، وقوله تعالى :﴿**إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم** ﴾(٤) كنى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر لأنه يرادفه .

٤- أن يفحش ذكره فى السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع كقوله تعالى: ﴿**وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾(٥) أى كنوا عن لفظه ، و لم يوردوه على صيغته ، وقوله تعالى:﴿**لكن لا تواعدهن سرا** ﴾(٦) فكنى عن الجماع بالسر.

ثم علق على الآية الكريمة مبينا الحكمة واللطافة فى الكناية عن الجماع بالسر فقال:" وفيه لطيفة أخرى لأنه(٧) يكون من الآدميين فى السر غالبا ولا يسره ماعدا الآدميين إلا الغراب ، فإنه يسره ، ويحكى أن بعض الأدباء ، أسر إلى أبى حاتم كلاما فقال: " ليكن عندك أخفى من سفاد الغراب ، ومن الراء فى كلام الألثغ " فقال :" نعم ياسيدنا ، ومن ليلة القدر ، وعلم الغيب(٨) "

---

(١) البقرة : ٢٤ .

(٢) صٓ : ٢٣ .

(٣) الأنفال : ١٦ .

(٤) آل عمران : ٩٠ .

(٥) الفرقان : ٧٢ .

(٦) البقرة : ٢٣٥ .

(٧) أى الجماع .

(٨) انظر تعليقنا على الكناية فى الآية الكريمة فى كتابنا " الإعجاز فى نظم القرآن " ص١١٠ .

وقوله تعالى :﴿**فالآن باشروهن**﴾[1] فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين ، وقوله تعالى . ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾[2] واللباس من الملابسة وهى الاختلاط والجماع ، وقوله تعالى:﴿**وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه**﴾[3] كناية عما تطلب المرأة من الرجل ، وقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لجلودهم شهدتم علينا** ﴾[4] أى لفروجهم فكنى عنها بالجلود ، وقوله تعالى :﴿**فجعلهم كعصف مأكول**﴾[5] كنى به عن مصيرهم إلى العذرة ، فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك ، وقوله تعالى : ﴿**الخبيثات للخبيثين**﴾[6] يريد "الزناة " وقوله تعالى:﴿**ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن**﴾[7] فإنه كناية عن الزنا ، وقيل أراد طرح الولد على زوجها من غيره ، لأن بطنها بين يديها ورجليها وقت الحمل .

٥- تحسين اللفظ كقوله تعالى :﴿**بيض مكنون**﴾[8] فإن العرب كانت من عادتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض ، قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   *تمتعت من لهو بها غير معجل*

٦- قصد البلاغة كقوله تعالى : ﴿**أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين**﴾[9] فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه والتزين والتشاغل عن النظر فى الأمور ودقائق المعانى ، ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك ، والمراد نفى ذلك

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

(٢) الآية السابقة .

(٣) يوسف : ٢٣ .

(٤) فصلت : ٢١ .

(٥) الفيل : ٥ .

(٦) النور : ٢٦ .

(٧) الممتحنة : ١٢ .

(٨) الصافات : ٤٩ .

(٩) الزخرف : ١٨ .

"أعنى الأنوثة" عن الملائكة ، وكونهم بنات الله تعالى الله عن ذلك .

٧- قصد المبالغة فى التشنيع كقوله تعالى حكاية عن اليهود - لعنهم الله :- "وقالت اليهود يد الله مغلولة"[١] فإن الغل كناية عن البخل ، وقوله تعالى : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ كناية عن كرمه .

ثم أشار إلى لطيفة فى الآية الكريمة ، لا يدركها إلا أصحاب الأذواق السليمة العالمون بأساليب اللغة العربية ، الواقفون على دقائقها وأسرارها الفاهمون لأهدافها ومقصادها ، المتذوقون لحلاوتها فقال :"وثنى اليد وإن أفردت فى الآية ليكون أبلغ فى السخاء والجود"

٨- التنبيه على مصيره كقوله تعالى:﴿تبت يدا أبى لهب﴾[٢] أى جهنمى مصيره إلى اللهب ، وقوله تعالى:﴿حمالة الحطب﴾[٣] أى نمامة ، ومصيرها إلى أن تكون حطباً لجهنم .

هذا ما قدمه الزركشى - رحمه الله - للكناية ، وإن من يتأمل حديثه عن الكناية يرى أنه سلك فى دراستها الاتجاه الأدبى فكشف القناع عن أسبابها فى القرآن الكريم بأسلوب أدبى رائع ، وبطريقة سهلة ميسورة لا تكد الذهن ، ولا ترهق الفكر فهو يذكر السبب ثم يورد له الكثير من الشواهد القرآنية ثم يبين موضع الكناية فيها ، وفى بعض الأحيان يتعرض لبعض اللطائف الأدبية التى تكمن فى الكناية .

وهو فى دراسته للكناية قد تأثر بمن سبقه من العلماء ، وبخاصة الشيخ عبد القاهر الجرجانى والأديب الكبير ابن أبى الإصبع المصرى ، فتعريفه للكناية هو تعريف الشيخ عبد القاهر ، والأسباب التى ذكرها قد سبقه إليها ابن أبى الإصبع فى كتابه " بديع القرآن " إلا أن الزركشى قد توسع فيها، وأتى لها بالكثير من الشواهد القرآنية .

---

(١) المائدة : ٦٤ .

(٢) المسد : ١ .

(٣) المسد : ٤ .

وقد امتازت دراسته للكناية بالإحاطة والشمول ، فقد ذكر أقوال العلماء فى كونها حقيقة أو مجاز إلا أنه لم يفصح عن رأيه فى النهاية وهذا مما يؤخذ عليه وامتازت دراسته أيضاً بالدقة والأمانة العلمية فهو يعترف بأنه استفاد من العلماء الذين سبقوه ، وينسب الأقوال إلى أصحابها فيقول عند تعريفه للكناية: هى عند علماء البيان ... إلخ ويقول فى معرض حديثه عن الكناية هل هى حقيقة أو مجاز : قال الطرسوسى ... وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام وينقل كلامهم بصدق وأمانة .

ونستطيع أن نجمل الجديد الذى قدمه الزركشى للكناية فيما يلى :-

١- التوسع فى ذكر أسبابها فى القرآن الكريم
٢- الإكثار من الشواهد القرآنية .

ويؤخذ عليه أنه لم يكشف لنا عن بلاغة الكناية ، ولم يحدثنا عن أثرها فى الأساليب العربية ، وإن كانت الأسباب التى ذكرها فيها إشارة إلى هذا الأثر.

كما يؤخذ عليه أيضاً أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض ، ولكن من يتأمل حديثه عن الكناية ، وتعليقه على بعض شواهدها يتبين له أنه لا يرى فرقا بينهما ، بل هو يجعل التعريض قسما من أقسام الكناية ، ولونا من ألوانها ، يتضح هذا من تعليقه على قوله تعالى ﴿خصمان بغى بعضنا على بعض﴾[1] فقد قال معلقاً عن هذه الآية مبيناً موضع الكناية فيها : " فكنى داود بخصم على لسان ملكين تعريضاً " فتعليقه هذا يستفاد منه أن التعريض قسم من أقسام الكناية وهو فى هذا يتابع السكاكى فى جعله التعريض قسما من أقسام الكناية ، كما يؤخذ عليه أنه ذكر أقوال العلماء فى الكناية هل حقيقة أو مجاز ، ولم يفصح عن رأيه، وهذا يتنافى وطبيعة الباحث المتعمق ، فمهمة الباحث لا تقف عند حد الجمع والنقل بل تتعدى هذا إلى الدراسة الواعية المستفيضة ، والمناقشة العلمية الهادفة المنصفة ، والخروج فى النهاية بالنتائج المفيدة ، وترجيح بعض الآراء على بعض بالأدلة والبراهين أو الخروج برأى جديد مؤيد كذلك بالحجيج والبراهين.

---

(١) سورة صٓ : ٢٣ .

أصحاب البديعات والكناية

لقد اتجه بعض المتأخرين من علماء البلاغة فى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى إلى صوغ الصور البلاغية فى منظومات شعرية ليسهل حفظها مضمنين كل بيت من هذه المنظومات لونا من ألوان البديع ، ومن أجل هذا سموا بأصحاب البديعات ، وكان لهم منهج خاص يهدف إلى الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، ومن أشهر هؤلاء على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠هـ ، وصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، وجابر الأندلسى المتوفى سنة ٨٧٠ هـ ، وعز الدين الموصلى المتوفى سنة ٨٧٩ هـ وابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧هـ، وعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ هـ .

ولعل بديعية لم تظفر بالشهرة كما ظفرت بديعية ابن حجة الحموى السالفة الذكر، قد جعلها فى مئة واثنين وأربعين بيتا استهلها بقوله :

لى فى ابتداء مد حكم ياعرب ذى سلم   براعة تستهل الدمع فى العلم

وهو فيها يقتدى بعز الدين الموصلى فى تضمين ألفاظ البيت ما يشير إلى المحسن البديعى الذى بناه عليه ، وصنف عليها شرحا مطولا سماه " خزانة الأدب " وقد طبع مراراً ونراه فى مقدمته لهذا الشرح ينوه بصفى الدين الحلى وبديعته وما اشتملت عليه من رقة ، بينما يصف بديعية عز الدين الموصلى بالثقل والتكلف الشديد ، ويقول:" إنه لذلك انبرى يصنع بديعية ، تتضمن أبياتها الإشارةإلى المحسنات البديعية على طريقته ، وفى الوقت نفسه تجرى فيها الرقة والسلامة على مثال بديعية صفى الدين .

وإن من يقرأ بديعية ابن حجة ، وشرحها المطول المسمى بخزانة الأدب يرى أنها مع خزانتها كفيلة بتمثيل منهج أصحاب البديعات فى الصور البلاغية التى منها الكناية ، ولذلك فإننى سأكتفى بذكر الكناية عند ابن حجة وموقفه منها ، وطريقة تناوله لها ليكون مثالا لهذا المنهج ، ودليلا على هذا المذهب .

ابن حجة الحموى والكناية

قال ابن حجة[1] :

قالوا : طويل نجاد السيف . قلت : وكم : لناره ألسنة تكنى عن الكرم

هذا بيت بديعيته ، ويعلق عليه قائلا : الكناية هى : الإرداف بعينه عند علماء البيان، إنما علماء البديع أفردوا الإرداف عنها .

ثم عرفها بقوله[2] :" الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو ردفه فى الوجود فيومىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه " ثم وضح التعريف فقال : مثال ذلك قولهم : "طويل النجاد كثير الرماد" يعنون بذلك أنه طويل القامة كثير القرى ، فلم يذكروا والمراد بذكره الخاص به ولكن توصلوا إليه بمعنى آخر، هو رديفه فى الوجود ، ألا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر الرماد .

ثم أورد لها بعض الشواهد الشعرية ، ووصفها بالحسن ، من غير أن يذكر السبب فى ذلك فقال:" ومن أحسن الأمثلة على هذا النوع قول الشاعر:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل *أبوها وإما عبد شمس وهاشم*

ثم بين الكناية فى البيت فقال:" أراد أن يذكر طول جيدها ، فأتى بتابعه ، وهو "مهوى القرط"

ومن شواهده التى أوردها ، ووصفها بالحسن والجودة قول ليلى الأخيلية :

ومخرق عنه القميص تخاله *وسط البيوت من الحياء سقيما*

ثم بين الكناية فى البيت مثلما فعل فى البيت السابق فقال :"كنت عن الإفراط فى

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٤٠.

(٢) خزانة الأدب ص ٤٤٠.

الجود بخرق القميص لجذب العفاة له عند ازدحامهم عليه لأخذ العطاء" .

ثم وضع مقياسا لبلاغة الكناية فقال[1]: "والأبدع أن يكنى المتكلم عن اللفظ القبيح بالحسن ثم استشهد على ذلك بآيات من القرآن ، فقال "والمعجز فى ذلك قوله تعالى :﴿**كانا يأكلان الطعام**﴾[2] كناية عن الحدث ، وقوله جل جلاله :﴿**قد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾[3] يريد بذلك ما يكون بين الزوجين ثم علق على هذين الشاهدين القرآنيين فقال : "وعلى الجملة لاتجد معنى من هذه المعانى فى الكتاب العزيز إلا بلفظ الكناية ، لأن المعنى الفاحش متى عبر المتكلم عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معيبا من جهة فحش المعنى ، ولهذا عاب قداة على امرىء القيس قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذى تمائم محول

إذا مابكى من تحتها انصرفت له ... بشق وتحتى شقها لم يحول

قال - أعنى - قدامة : "عيب هذا الشعر من جهة فحش المعنى ، والقرآن منزه عن ذلك ، ولو استعار امرؤ القيس لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب ، وهذا القدر ينتقد على مثله "

ثم أورو للكناية شواهد من السنة الشريفة فقال :" وفى السنة النبوية من الكنايات مالا يحصى كقوله صلى الله عليه وسلم :"**لا يضع العصا عن عاتقه**" كناية عن الضرب أو كثرة السفر"

هذا ماقدمه ابن حجة للكناية ، وإن من يتأمل جهده فى هذا الميدان لا يرى فيه جديدا فهو عبارة عن جمع لآراء السابقين ، وشواهدهم ، ولذلك لم تتقدم أو تتطورالكناية على يديه ، بل وقف بها عندما وقف السابقون .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن أثر أصحاب البديعيات وعلى رأسهم ابن حجة فى

(١) خزانة الأدب ص٤٤٠.

(٢) المائدة : ٧٥ .

(٣) النساء : ٢١ .

الكناية بخاصة ، والصور البلاغية بعامة أثر ضئيل ، لأن هدفه - كما أسلفنا - كان الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، فضلا عن أن هذا المنهج الذى سلكه أصحاب البديعات يقوم على الاختصار الشديد ويحتاج عمله إلى الشرح ، ولذلك فإنه أصاب الصور البلاغية بالتعقيد والجمود ، وأفقدها الكثير من حسنها وجمالها ، وورونقها وبهائها .

ملاحظاتى على الكناية عند القدماء

من خلال دراستى للكناية عند القدماء ، واطلاعى على جهودهم التى بذلوها ووقوفى على آرائهم ، وتعرفى على اتجاهاتهم ، لاحظت عدة أمور أجملها فيما يلى :

١- لقد تطورت الكناية على أيدى القدماء من الغمور إلى الغموض إلى الوضوح ، ومن العموم إلى التخصيص ، فقد كانت عند أبى عبيدة غامضة عامة، فهى عنده ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلى ، واستمرت فى غموضها وعمومها عند ابن المعتز ، وأبى هلال ، وابن رشيق ، وابن سنان ، ثم خطت خطوات واسعة على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى ، فأخذت صورة المصطلح العلمى ، حيث اشترط فيها العبور إلى المعنى المقصود باستعمال معنى غير مقصود ، ولكنه ردف له وتاليه ، ثم دخلت في دائرة المجاز على يد ابن الأثير ، فقد حملها على جانبى الحقيقة والمجاز ، ثم خصصت تخصيصا تاما على يد الخطيب القزوينى ، وبذلك صارت جميع الدراسات حولها تدور فى إطار ما فعله الخطيب .

٢- دراسة القدماء للكناية تكاد تكون في أغلب الأحيان دراسة تقليدية ، فالمتأخر يقلد المتقدم فى التعريف ، والتقسيم ، وينقل شواهده ، بل وبنقل تعليقاته على هذه الشواهد ، دون أن يأتى بجديد يستحق الذكر والتسجيل، وفى بعض الأحيان قد يتصرف، ولكن تصرفه يكون محصورا فى الصياغة بأن يستبدل لفظا بآخر ، ومن أجل ذلك كان أثرهم فى التجديد ضئيلا ، باستثناء الشيخ عبد القاهر الجرجانى وابن الأثير فقد كانت دراستهما للكناية فيها الكثير من التجديد ، والابتكار فى الفكرة وفى التعريف، وفى الشواهد وفى التناول والصياغة ، والأسلوب ، فعبد القاهر هو الذى وضع أسس الاتجاه الأدبى الذى سار عليه الكثيرون من العلماء فى تناولهم للصور البلاغية قديما وحديثا ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتحليل والنقد الذى

يهدف إلى إظهار ما فى الأساليب العربية من الحسن والجودة ، أو القبح والرداءة ، وابن الأثير قد وضع أسس اتجاه جديد فى الدرس البلاغى ، فقد مزج الاتجاهين الأدبى والكلامى واستخلص منهما اتجاها وسطا كان له أثر كبير فى إثراء الدرس البلاغى ، وتجديد شباب الصور البلاغية ، وإظهار محاسنها ومفاتنها ، بعد أن هرمت وشاخت على يد السكاكى الذى مزق أوصالها ، وشوه حسنها وجمالها ، وألبسها ثوبا قاتما من المنطق والفلسفة .

٣- لم يكشف لنا أغلب القدماء عن أثر الكناية فى الأساليب العربية وهذا مما يؤخذ عليهم ، فالكناية تعبير فنى جميل ، وصورة بيانية رائعة، تكسب المعنى قوة ولطافة ، والأسلوب رونقا وبهاء ، يسلكها الأدباء للتعبير عما يدور فى نفوسهم من الخواطر، ويجيش فى صدورهم من المعانى ، فكان ينبغى للعلماء القدماء أن يكشفوا لنا عن حسنها وجمالها ، ومدى ماتضفيه على الأسلوب من الروعة واللطافة والقوة ، ولكنهم لم يفعلوا وأهملوا هذا الجانب الجمالى الذى هو المقصود من دراسة الصور البيانية فى الأساليب العربية .

٤- خلت دراسة القدماء للكناية فى أغلب الأحيان من النقد الذى يقوم على الذوق والإحساس ويهدف إلى إظهار ما فى الأساليب من الحسن والجودة ، أو القبح والرداءة عن طريق الموازنة بين الصور البلاغية فى الأساليب العربية والمفاضلة بينها على أسس نقدية سليمة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بالنفس البشرية ، وتراعى فيها مقتضيات الأحوال ، وحسن الصياغة وجمال التعبير وحسن الأداء .

٥- خلت دراسة القدماء كذلك من التحقيق والتمحيص ، ويظهر هذا واضحا فى عدم نسبة أكثر الشواهد إلى أصحابها ، ولعل السبب فى هذا هو التقليد الذى سيطر على الكثير منهم ، فأخذ المتأخر ينقل شواهد من سبقه ، ولا يكالف نفسه مؤونة البحث عنها فى مصادرها ، ومن أجل ذلك فإن كثيرا من كتب القدماء المطبوعة تحتاج إلى تحقيق .

٦- دراسة القدماء للكناية لم تتوفر فيها الأمانة العلمية ، فقد أولعوا بالتقليد ، فكان المتأخر ينقل عن المتقدم تعريفه وشواهده وأقسامه ، دون أن يشير إلى ذلك ، وهذا

يتنافى مع الأمانة التى تقتضيها البحوث العلمية ، فللباحث أن ينتفع بأفكار من سبقه أو عاصره من العلماء ، ويستفيد من دراسته بشرط أن يشير إلى ذلك ، أما أن يترك الإشارة، وينسب إلى نفسه ماليس له فهذا اعتداء ، وجحد للفضل ، ونكران للجميل ، وإخلال بواجب الأمانة العلمية .

٧- دراسة القدماء للكناية بخاصة والصور البيانية بعامة ، لم تكن دراسة موضوعية منهجية تقوم على حسن التبويب والتنسيق ، وإنما كانت فى كثير من جوانبها دراسة مشوشة ، لا تهتم بجمع أطراف الموضوع الواحد فى موضع واحد ، بل ترى الموضوع الواحد يذكر فى مواضع متفرقة ، وهذا يؤدى إلى تشتيت ذهن القارىء ويصيبه بالملل والسآمة ويجعل محصوله العلمى ضئيلا ، وأثره قليلا ، وأكبر مثال على هذا كتابا عبد القاهر الجرجانى " الدلائل والأسرار " فإن الموضوع الواحد يتكرر فيها فى أكثر من موضع ، حتى ليصبح من الصعوبة على القارىء أن يلم بأطراف الموضوع المتشعبة ، والمتناثرة فى صفحات الكتاب .

٨- دراسة القدماء للكناية وسائر الصور البلاغية تكثر فيها الخلافات حول التعريفات والتقسيمات والتفريعات ، وهذه الخلافات قد جنت على الصور البلاغية ، فأطفأت أنوارها ، وأصابت أزهارها الجميلة بالذبول والجفاف ، ومزقت أوصالها ، وشوهت جمالها ، وأكبر مثال لهذا ما نراه فى كتاب " الطراز " للعلوى ، فقد تتبع تعريفات السابقين ، ونقدها نقدا حكم فيه المنطق ، واعتمد فيه على الفلسفة ، وأهمل الناحية الجمالية ، وكم كنت أود أن يكرس جهده للناحية الجمالية التى هى المقصودة من دراسة الصور البلاغية ، ولكن لم يفعل ولعل السبب فى ذلك أن القدماء قد تأثروا بالفلسفة والمنطق ، فانعكس هذا التأثر على دراستهم للصور البلاغية ، فجاءت أساليبهم شاحبة باهتة ، وجاءت دراساتهم جافة قاتمة، تكد الذهن ، وترهق الفكر.

٩- لم يتعرض أحد من القدماء لدراسة الكناية فى القرآن الكريم دراسة مستقلة ، تكشف عن أثرها ، وفائدتها ، وسر جمالها وخلودها ، بل شغلوا أنفسهم بدراسات فلسفية عقيمة كالبحث فى كونها حقيقة أو مجاز ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها فى هذا الجانب ، وأكثروا من الجدل فى هذا الميدان ، وأهملوا الناحية الجمالية ، ويستثنى

منهم فى هذه الناحية الشيخ الزركشى ؛ فقد كشف عن بعض فوائدهـا فـى القـرآن الكريم بأسلوب أدبى ، وبطريقة سهلة ميسورة ، ولكنه لم يكشف لنا عن سر جمالها وعظمتها فى القرآن الكريم .

١٠- كذلك لم يتعرض أحد من القدماء للحديث عن الكناية فى القرآن الكريم من حيث الإعجاز هل هى معجزة أولا ؟ وهذا مما يؤخذ عليهم، فإن الهدف من دراسة البلاغة هو الوقوف على سر الإعجاز فى القرآن الكريم ، فكان من الواجب على هؤلاء القدماء الأجلاء أن يدرسوا هذه الصور البلاغية فى القرآن الكريم من هذه الناحية دراسة وافية مستفيضة ولكنهم لم يفعلوا ، ويستثنى منهم فى هذه الناحية الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، فقد أشار إلى هذا إشارة جزئية حينما تعرض لبيان الاستعارة فى قوله تعالى: " واشتعل[١] الرأس شيبا" فقد أرجع السر فى جمال الاستعارة وشرفها إلى نظمها الذى هو فوق مقدور البشر ، ووقف عند هذه الجزئية، ولم يجاوزها إلى غيرها من جزئيات البيان العربى ومن هنا ندرك أن عبد القاهر يرى أن الاستعارة - وهى صورة من صور البيان العربى - معجزة وأن إعجازها راجع إلى نظمها ولكنه - كما أسلفنا - وقف عند هذه الجزئية فقط[٢]

١١- سلك القدماء فى دراسة الكناية بخاصة والصور البلاغية بعامة أربعة اتجاهات هى :

١- **الاتجاه الأول** : تغلب عليه الناحية الأدبية ، ويعتمد إلى حد ما على الذوق والإحساس ، ومن رجال هذا الاتجاه ابن المعتز ، وأبو هلال العسكرى ، وابن رشيق القيروانى ، والشيخ عبد القاهر الجرجانى.

٢- **الاتجاه الثانى** : تغلب عليه الناحية الكلامية ، ويعتمد على العقل والمنطق ، ومن رجال هذا الاتجاه ، قدامة بن جعفر ، وابن سنان الخفاجى، والسكاكى ، والخطيب القزوينى .

---

(١) انظر ص ٨٩ ، ٨٠ من دلائل الإعجاز ،والأية فى سورة مريم : ٤ .

(٢) لقد تحدثت عن الإعجاز فى الصور البلاغية , ووفيته حقه على قدر استطاعتى فى كتابى "الإعجاز فى نظم القرآن " فى ص ٩١ - ١١١ فليرجع إليه القارىء الكريم إن شاء .

٣- **الاتجاه الثالث** : هو مزيج من الاتجاهين الأدبى والكلامى ، وهذا الاتجاه يعتمد على الذوق والعقل معا ، ويهتم بالناحيتين الجمالية والعلمية، ومن رجال هذا الاتجاه ابن الأثير ، وابن أبى الإصبع المصرى ، وعز الدين بن عبد السلام .

٤- **الاتجاه الرابع** : اتجاه أصحاب البديعيات ، وهو اتجاه يكاد يكون امتداد الاتجاه الكلامى ، إذ هو اتجاه يهدف إلى الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، ويهمل فى أغلب الأحيان الناحية الجمالية .

الفصل الثانى

الكناية فى العصر الحديث

لقد تحدثت فى الفصل الأول من هذا البحث عن الكناية عند القدماء من علماء البيان العربى . فكشفت النقاب عن آرائهم ، وأمطت اللثام عن جهودهم ، ثم سجلت فى نهاية الفصل ملاحظاتى على دراساتهم ، وفى هذا الفصل سأتحدث بعون الله وتوفيقه عن الكناية عند المحدثين ، ونعنى بهم علماء البيان فى العصر الحديث ، ومن أشهر هؤلاء العلماء ، الشيخ المرصفى ، والشيخ المراغى ، والشيخ على الجارم ، والدكتور أحمد بدوى، والدكتور بدوى طبانة ، والشيخ أحمد الهاشمى .

المرصفى والكناية

لقد تحدث حسين المرصفى عن الكناية فى كتابه " الوسيلة الأدبية للعلوم العربية " فعرفها بقوله :[1] "هى لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادته أيضا ، فيكون المراد إفادتهما جميعا" ثم قسمها إلى ثلاثة أقسام على نحو ما فعل السكاكى ، ثم بين أنواعها من الإشارة والرمز ، والايماء ، مترسما فى ذلك خط السكاكى ، ثم أورد بعض الشواهد الأدبية وعلق عليها بأسلوب أدبى رائع ، موضحا موضع الكناية ، كاشفا عن حسن تصويرها ، وبراعتها .

ملاحظاتى على الكناية عند المرصفى :

١- لقد ترسم الشيخ المرصفى - رحمه الله - خطا السابقين ، واقتفى أثرهم فى دراسته للكناية فتعريفه لها تعريف الخطيب القزوينى ، وتقسيماته هى تقسيمات السكاكى ، والأنواع التى ذكرها ، وجعلها أقساما للكناية قد سبقه إليها السكاكى وشواهده التى أوردها هى شواهد السابقين ، وليس له فيها من جديد يذكر سوى تعليقه عليها بأسلوبه الأدبى الرائع الأخاذ .

---

(١) الوسيلة الأدبية للعلوم العربية جـ٢ ص٢٦ .

٢- امتازت دراسته للكناية بتجنب الخلافات التى كثيرا ما كان يثيرها السابقون .

٣- كما امتازت طريقته بحسن العرض وجمال الصياغة .

وبذلك نستطيع أن نحصره جديده الذى قدمه للكناية فى ثلاثة أمور :

(أ) تجنب الخلافات التى كثرت فى كتب السابقين ، وتميزت بها دراستهم .

(ب) تعليقه على شواهد السابقين بأسلوب أدبى رائع .

(جـ) الكشف عن جمال الكناية وبراعتها بطريقة أدبية مشوقة .

الهاشمى والكناية:

تحدث المرحوم أحمد الهاشمى عن الكناية فى كتابه " جواهر البلاغة " فعرفها بقوله[١] :" هى لفظ أريد به غير معناه الذى وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلى لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته " ثم أورد لها كثيرا من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنظوم كلام العرب ومنثوره ، ثم علق على هذه الشواهد " مبينا موضع الكناية فيها فمن شواهده القرآنية قوله تعالى ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا** ﴾[٢] كناية عن الغيبة ، وقوله تعالى: ﴿**وحملناه على ذات ألواح ودسر**﴾[٣] كناية عن السفينة، ومن شواهده الشعرية التى أوردها قول الحضرمى :

قد كان تعجب بعضهن براعتى حتى رأين تنحنحى وسعالى

كناية عن كبر السن .

ومن شواهده النثرية التى أوردها ماروى أن خلافا وقع بين بعض الخلفاء ، ونديم

---

(١) جواهر البلاغة ص ٣٤٦ .

(٢) الحجرات : ١٢ .

(٣) القمر : ١٣ .

له فى مسألة فاتفقا على تحكيم بعض أهل العلم فأحضر ، فوجد الخليفة مخطئا فقال : القائلون بقول أمير المؤمنين أكثر " يريد الجهال" ومن شواهده النثرية أيضا قول العرب فى أمثالهم : " قلبت له ظهر المجن " كناية عن تغيير المودة .

ثم استطرد فى سرد ما ورد عن الأدباء من الكنايات اللطيفة فى شتى المعانى والأغراض ، مما يدل على سعة اطلاعه ، وطول معاشرته لأساليب اللغة العربية .

ثم ذكر تقسيمات الكناية ، مترسما فى ذلك خطا السكاكى مع الإكثار من الشواهد ، ثم أماط اللثام عن بلاغة الكناية بما لا يخرج عما قاله القدماء من علماء البيان.

ومن هنا نستطيع أن نقول منصفين : إن الهاشمى - رحمه الله - قد ترسم خطا السابقين فى دراسته للكناية ، فتعريفه ليس فيه جديد يثير فى النفس دافعا إلى معرفته وشوقا إلى استجلاء جماله ، وإنما هو نسخة مكررة من تعريفات السابقين ، وتقسيماته تقسيمات السكاكى ، وليس له من جديد سوى الإكثار من الشواهد وتجنب الخلافات ، وحسن العرض ، وجمال الصياغة .

المراغى والكناية

تحدث الشيخ مصطفى أحمد المراغى - رحمه الله - عن الكناية فى كتابه " علوم البلاغة " فعرفها لغة بقوله : " الكناية لغة أن تتكلم بشىء ، وتريد غيره ، وقد كنوت بكذا عن كذا ، أو كنيت إذا تركت التصريح به وهو فى إثبات معناها اللغوى يسلك منهج اللغويين القدماء ، بل يستشهد على أصل اشتقاقها بما استشهدوا به ، ثم يورد تعريفها الاصطلاحى فيقول : " وفى الاصطلاح تطلق على معنيين " :-

(١) المعنى المصدرى الذى هو فعل المتكلم ، أعنى ذكر اللفظ الذى يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه .

(٢) اللفظ المستعمل فيما وضع له ، لكن لا ليكون مقصودا بالذات بل لينتقل منه إلى لازمه المقصود لما بينهما من العلاقة واللزوم العرفى .

ثم يذكر تقسيماتها مترسما فى ذلك خطا الشيخين السكاكى والخطيب القزوينى

ثم يستشهد لهذه الأقسام بما استشهد به السابقون ، ثم يعود فيقسمها إلى حسنة وقبيحة ، ثم يفرق بينهما بأن الحسنة ما جمعت بين الفائدة ولطف الإشارة ، والقبيحة ماخلت عن الفائدة المرادة من الكناية ، ثم يستشهد لهما بشواهد السابقين ، ثم يكشف التقارب عن بلاغة الكناية بما لا يخرج عما ذكره السابقون من علماء البيان .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشيخ المراغى - رحمه الله - لم يقدم للكناية جديدا يستحق الذكر والتسجيل : فلقد ترسم - كغيره من علماء عصره - خطا السابقين ، واقتفى أثرهم وقلدهم فى كل شيء ، فقد عرفها بتعريفين لم يخرجا عن تعريفى عبد القاهر والسكاكى ثم نقل عن السكاكى جميع تقسيماتها بصدق وأمانة ، ثم استشهد لهذه الأقسام بشواهد السابقين ، ثم نقل عن ابن الأثير تقسيمها إلى حسنة ومعيبة ، وعندما تكلم عن بلاغتها نقل ما قاله الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، ولم يزد شيئا ، وكل مافعله الشيخ المراغى هو حسن التنسيق والتبويب والبعد عن الخلافات التى أولع بها السابقون .

الجارم وأمين والكناية

تحدث الأستاذان المرحوم على الجارم ، والأستاذ مصطفى أمين عن الكناية فى كتابهما " البلاغة الواضحة " بطريقة جديدة لم يسبقا إليها ، فبدءا بعرض كثير من النصوص[1] الأدبية : قرآنية ، وشعرية ، ونثرية ، ثم بحثا هذه النصوص بحثا دقيقا من حيث اللفظ والمعنى ، ثم بينا مواضع الكناية فيها ، وكشفا عن حسنها وبراعة تصويرها ثم وضعا تعريفا لها هو : الكناية لفظ أطلق ، وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى ، ثم قسما الكناية إلى ثلاثة أقسام .

١- كناية عن صفة
٢- كناية عن موصوف
٣- كناية عن نسبة

---

(١) البلاغة الواضحة ص١٢٣.

مترسمين في ذلك خطا السكاكي ، ثم تحدثا عن بلاغة الأسلوب الكنائي وأثره في حسن الصورة ، وتصوير المعنى .

وحصرا بلاغة الكناية فيما يلي :-

١- الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية في طيها برهانها .

٢- تبرز لك المعاني المجردة في صورة المحسات .

٣- تمكنك من أن تشفي غلتك من خصمك من غير أن تجعل له سبيلا عليك ودون أن تخدش وجه الأدب

٤- التعبير عن القبيح بما تسيغ الآذان سماعه .

ثم أوردا كثيرا من الشواهد الأدبية لهذه الأسرار البلاغية ، وعلقا عليها مبينين ماتضمنته هذه الشواهد من مظاهر الجمال والسحر الحلال بأسلوب أدبي رائع أخاذ .

ملاحظاتي على الكناية عند الجارم وأمين

من خلال دراستي للكناية عند هذين الأستاذين الكبيرين لاحظت عدة أمور هي :-

١- لقد ابتكرا طريقة جديدة في تناول الدرس البلاغي فيها الكثير من المزايا التي رفعت من شأن البلاغة العربية ، وأخذت بيدها نحو التقدم والرقي ومن هذه المزايا مايلي:-

(أ) إن هذه الطريقة تعمل على غرس ملكة البلاغة في نفس القارىء ، وتطبعه على الذوق العربي ، وتبصره بأسرار الكلام البليغ ، وما فيه من ضروب الحسن وبدائع البياذ .

(ب) إنها تعمل على تربية ملكة الذوق الصحيح .

٢- أكثرا من الشواهد الأدبية ، وحللاها تحليلا أدبيا رائعا ، وأوقفا القارىء على مواطن الحسن والجمال فيها .

٣- تجنبا الخلافات التى أكثر منها السابقون ، واتسمت بها دراستهم .

٤- ركزا جهودهما على الناحية الجمالية التى هى المقصودة من دراسة الصور البلاغية .

٥- خلت دراستهما فى أكثر جوانبها من الفلسفة والمنطق .

٦- مع ابتكارهما لمنهج جديد فى تناول الدرس البلاغى ، إلا أنهما لم يسلما من سيطرة المنهج القديم عليهما ، فلقد تعرضا لتقسيمات السابقين ، وأثبتاها فى هامش الصفحات فقد أثبتا أن الكناية إن كثرت وسائطها سميت تلويحا وإن قلت وخفيت سميت رمزاً ، وإن قلت الوسائط ووضحت أو لم تكن سميت إيماء وإشارة كما أنهما جعلا للتعريض نوعاً من الكناية .

الدكتور أحمد بدوى والكناية

تحدث الدكتور أحمد بدوى - رحمه الله - عن الكناية فى كتابه " الأسس النقدية لدى علماء العربية " فكشف النقاب عن منزلتها فى البيان العربى، وأثرها فى الأسلوب فذكر[١] أنها لون من ألوان الخيال ، عنى بها نقاد العرب ، وعرفوا لها مكانها فى الإيضاح والتأثير ، فإن الشعراء يذهبون أحيانا مذهب الكناية والتعريض ، وهم إذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف ودقائق تعجز الوصف ، ورأيت هناك شعراً شاعراً ، وسحراً ساحراً ، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفلق والخطيب المصقع . ثم ذكر أن العرب وضعوا الكناية فى مكان أرفع من التصريح ، وعلل ذلك بأن الأديب فى الكناية يقرن دعواه إثبات أمر من الأمور ، بما يجعل النفس ترتاح إلى إثباته ، وتطمئن إلى هذا الإثبات ؛ إذ كأنه أتى ببرهان على دعواه ، وهذا واضح عندما يكون مراد الشاعر إثبات صفة أو نسبة ، فإذا كنى عن ذات اختار أنسب مافى هذه الذات ، وماله دخل فى الحكم - فجعله كناية عنه ، اقرأ قول الشاعرة

---

(١) أسس للنقد الأدبى عند العرب ط الثانية ص٥٢٨، ٥٢٩ .

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا مابيوت بالملامة حلت

فنجده قد تلطف فى وصف هذه المرأة بالعفة ، فذكر ماتطمئن به النفس إلى حسن سلوكها ، وعفة نفسها ، وهو أن الناس لا يتخذونها مضغة فى أفواههم ولا يتركون اسم بيتها مقترنا بما يسىء إلى سمعتها .

ثم بين أن نقاد العرب عابوا الكناية ، إذا كان بين المعنيين وسائط كثيرة بحيث يغمض الشيء المطلوب ، ولا يظهر بسرعة ، كما كرهوا الكنايات التى تبعث فى النفس آثاراًغير رفيعة كقول المتنبى :

إنى على شغفى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها

فهذه كناية عن النزاهة والعفة ، إلا أن الفجور أحسن منها ، وماذاك إلا لنزول قدرها ، وسوء تأليفها .

ودراسة الدكتور أحمد بدوى – رحمه الله – للكناية دراسة نقدية تحليلية تهدف إلى الكشف عما فى الأساليب العربية من الحسن والجمال ، أو القبح والرداءة ، وهذه الدراسة قد سبقه إليها القدماء ، ومن هنا نستطيع أن نقول : إن أثر الدكتور بدوى فى الكناية ضئيل فليس له من جديد سوى حسن العرض ، وجمال الصياغة .

الدكتور بدوى طبانة والكناية

تحدث الدكتور بدوى طبانة عن الكناية فى كتابه " علم البيان " فقدم لدراستها بالكلام عن موقعها بين الفنون الأدبية،فأبان فى هذا التقديم أن الأدب تعبير قولى هدفه الإيضاح فى نقل المعانى والأفكار إلى الناس ممتازة فى الفكر ، سامية فى التعبير ، كما أوضح أن غاية الأديب من أدبه التى يرمى إلى تحقيقها التأثير والإقناع بالفكرة ، وصدق الإحساس حتى تحدث المشاركة بين سامعى أو قارئى أدبه ، وحتى تكون تلك المشاركة مظهراً من مظاهر تقديره ، ولا شك أن هذه الغاية متحققة فى جميع الصور البيانية ، وقد يظن ظان أن أسلوب الكناية من بين الصور البيانية مخالف لما عليه الأسلوب البيانى ، فأبان الهدف من دراسة الكناية ، وكيف أنها لاتتعارض مع الوضوح المطلوب من الكلام،

بأنه لم يقصد بهذا الوضوح التبذل بالكلام ، بل لابد للإنسان أن يجيل فكره فى صورة الكناية إلى أن يفهم هدف المتكلم ، وإنما المراد الوضوح الذى يكون معه إعمال الفكر ، وتحريك الخاطر لطلب المعانى .

ثم فرق بينها وبين التعقيد ، بأنها ماكان معناها إلى القلب أسرع من لفظها إلى السمع، ومن هنا يبدو أثر الكناية أو التعريض أو الرمز أو الإيماء فى جمال ماتنبه من ملكات ، وما تستثير من الأذواق ، ولا يقصد بالخفاء هنا ذلك الذى يصل إلى حد التعمية التى تتعبك ، ثم لا تجدى عليك ، وتؤرقك ، ثم لا تروق[1] لك .

ثم كشف النقاب عن بلاغة الكناية فقال: " وأسلوب الكناية فى البلاغة العربية من أهم الأساليب التى يلجأ إليها الأدباء ليحققوا الغاية التى ذكرناها فى هذا الكلام من محاولة إخفاء المعنى الصريح ذلك الإخفاء الذى يجنبهم كثيرا مما يخشون التصريح به ، أو مما لايرضونه لعباراتهم من الفحش والابتذال ، وهو فى الوقت نفسه يستثير الشوق فى نفس القارىء والسامع ، فيجد كل منهما المتعة الفنية التى يصل إليها بعد البحث والتأمل والإدراك ، فيظل أثرها باقيا فى نفسه ، ويبقى الاستمتاع بها وقتا طويلا[2]

---

(١) انظر ص١٧٣ -١٧٦ من علم البيان للدكتور بدوى طبانة .

(٢) علم البيان ص١٧٦.

الفصـــل الثالـــث

صور الأسلوب الكنائى

تبلورت جهود البلاغيين فى نهاية المطـاف عـن تفريـع الأسـلوب الكنـائى بحسـب المطلوب - كما يرى السكاكى - إلى ثلاثة أقسام ، واستمرت هـذه الأقسـام دسـتورالا يحيد عنه البلاغيون إلا نادرا .

وها هى الأقسام :

١- القسم الأول : الكناية المطلوب بها صفة[1]

وهى نوعان : قريبة ، وبعيدة ، والقريبة نوعان : واضحة وخفية .

أولا : القريبة :

(١) القريبة الواضحة : وهى التى ينتقل منها إلى المطلوب من أقـرب لوازمـه إليـه مـن غير واسطة ، وبسهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى :

ومن شواهدها قول الحماسى

أبت الروادف والثدى لقمصها ... مس البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشى تناوحت ... نبهن حاسدة وهجن غيورا

فقد كنى البيت الأول عن نهود ثدييها ، وكبر ردفيها ، وضمور خصريهـا حيـث أطلق منع الروادف والثدى قمصها من أن تمس الظهر أو البطن لينتقـل منـه إلى المـراد فـى سهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى

---

(١) المراد بالصفة : المعنى القائم بالغير ، لاخصـوص النعـت النحـوى كالشـجاعة ، والجـبن ، والكـرم والبخل ، والطول ، والقصر ، والشرف ، والخسة ، والرفعة ، والضعة ، وما شاكل ذلك ..

وقول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل ... أبوها وإما عبد شمس وهاشم[1]

فقوله: " بعيدة مهوى القرط " كناية عن طول العنق ، وهى كناية قريبة واضحة لأن الانتقال من: بعد مهوى القرط : إلى طول العنق ، يحصل بسهولة ويسر ، ومن غير حاجة إلى تأمل وفكر .

(ب) **القريبة الخفية** : وهى التى ينتقل منها إلى المطلوب من أقرب لوازمه إليه من غير واسطة مع تأمل وإعمال فكر وروية لخفاء التلازم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى.

ومن شواهدها قول الشاعر :

عريض القفا ميزانه فى شماله ... فقد انحص من حسب القراريط شاربه[2]

يصف رجلا بالغباوة ، على طريق الكناية ، لأن "عرض القفا" كناية عن الحمق ، و "ميزانه فى شماله" كناية عن البله ، و "انحص من حسب القراريط شاربه" كناية عن البلادة فهذه ثلاث كنايات قريبة خفية ، أما كونها قريبة: فلأن الانتقال من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى المراد لا يتوقف على وسائط ، وأما كونها خفية : فلأن الانتقال فيها من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى يتوقف على تأمل وإعمال فكر وروية ، فالانتقال من عرض القفا إلى الحمق ، ومن كون ميزانه فى شماله : إلى البلاهة ، ومن انحسار شاربه إلى البلادة لا يفهمه كل أحد ، وإن فهمه أحد فبعد بذل مجهود فكرى ، ومرجع ذلك إلى أنه لم يشتهر استعمال هذه التراكيب فى هذه المعانى عند كل الناس .

ثانيا : البعيدة : هى التى يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى

---

(١) القرط : حلى الأذن ، ومهواه : مسقطه من المنكب .

(٢) انحص : انحسر شاربه لكثرة ما يعض على شفتيه عند الحسب والعد .

بواسطة واحدة أو أكثر .

فمن شواهد الأولى[1] : مارواه البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾[2] عمدت إلى عقالين ، أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتى ، قال: فجعلت أنظر إليهما . فلما تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبرته بالذى صنعت فقال : " إن كان وسادك لعريضا "

والشاهد فى قوله – عليه الصلاة والسلام – " إن كان وسادك لعريضا " فهو كناية عن قلة فهمه ، وبين المعنى الحقيقى ، والمعنى الكنائى المراد : واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ، ومن عرض القفا إلى المعنى الكنائى المراد .

ومن شواهدها أيضا قول أبى تمام :

فإن أنا لم يحمدك عنى صاغرا   عدوك فاعلم أننى غير حامد

يقول لممدوحه : إن لم أكن أجيد القول فى مدحك إلى الحد الذى يرغم عدوك على حفظه وترديده ، فلا تعتبرنى مادحا لك بما أنظم فيك .

فقد كنى بحفظ عدو ممدوحه مدحه فيه عن : إجادة شعره فى مدحه ، فبين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من: حفظ عدو ممدوحه قول الشاعر فيه إلى : إعجابه بقوله ، وينتقل من إعجابه بقوله إلى إجادة شعره فيه ...

ومن شواهد الثانية[3] قول نصيب :

لعبد العزيز على قومه   وغيرهم منن ظاهرة

---

(١) أى التى يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى بواسطة واحدة .

(٢) البقرة : ١٨٧ .

(٣) أى التى يكون الانتقال فيه من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى بأكثر من واسطة.

فبابك أسهل أبوابهم ودارك مأهـولة عامـرة

وكلبك آنس بالزائر ين من الأم بالابنة الزائـرة

فإنه ينتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائرين معارف عنده ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدتهم ليلا ونهارا ، ومنه إلى لزومهم بابه ، ومنها إلى وفور إحسانه إلى الخاص والعام وهو المقصود .

وقوله ابن هرمه :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل[1]

فإنه ينتقل من عدم إمتاع العوذ بالفصال إلى : نحرها ، ومنه إلى: كثرة الآكلين ، ومنها إلى : كثرة الضيوف ، ومنها إلى الكرم .

وقول الآخر :

وما يك فى من عيب فإنى جبان الكلب مهزول الفصيل

فإن الذهن ينتقل من جبن الكلب عن الهريرفى وجه من يقصد دارا هو مقيم على حراستها والعس دونها مع أن ذلك ليس من طبعه ، إلى أنه قد دام زجره وتأديبه حتى تغير عن مجرى عادته ، ثم إلى استمرار موجب نباحه ، وهو اتصال مشاهدته وجوها إثر وجوه ؛ ومن ذا إلى كونه ملجأ للقاصى وللدانى ، ومن ذا إلى أنه مشهور بحسن قرى الأضياف .

وكذا ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومن ذا إلى قوة الداعى إلى نحرها ، مع كمال عنايتهم بالنوق خصوصا المتالى[2] منها ، ومن هذه إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومن ذا إلى أنه مضياف .

---

(١) العوذ – بضم العين – : جمع عائذه وهى الناقلة الحديثة النتاج ، الفصال – بكسر الصاد – : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، أى فطم ، ابتاع : اشترى .

(٢) المتالى : من أتلت الناقة : إذا تلاها ولدها .

٢- **القسم الثانى : الكناية المطلوب بها موصوف :**

والكناية فى هذا القسم نوعان : قريبة وبعيدة

فالقريبة : هى أن يتفق فى صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض فتذكرها متوصلا بها إلى ذكر الموصوف . كقول الشاعر

الضاربين بكل أبيض مخذم   *والطاعنين مجامع الأضغان*(١)

فقد كنى "بمجامع الأضغان" عن القلب

وقول شوقى فى محاسن اللغة العربية :

إن الذى ملأ اللغات محاسنا   *جعل الجمال وسره فى الضاد*

فقد كنى : بـ "الضاد" عن اللغة العربية ، لأن حرف الضاد من خصائصها التى تدل عليها .

وقول المتنبى يمدح سيف الدولة لما ظفر ببنى كلاب

فمساهم وبسطهم حرير   *وصبحهم وبسطهم تراب*

ومن فى كفه منهم قناة   *كمن فى كفه منهم خضاب*

والشاهد فى البيت الثانى ، فقد كنى بمن يحمل قناة عن الرجل ، وكنى بمن فى كفه خضاب عن المرأة ، فهو يريد أنهم لهيبة سيف لدولة خذلوا حتى صار الرجل منهم كالمرأة

وقول أبى العلاء المعرى

سليل النار دق ورق حتى   *كأن أباه أورثه السلالا*

---

(١) الأبيض : المراد به السيف ، مخذم على وزن منبر القاطع ، الأضغان : جمع ضغن - بكسر الضاد وسكون الغين - وهو الحقد .

فكنى بقوله : " سليل النار " عن السيف ، لأن للنار شأنا كبيرا فى صنعـه فكأنهـا ولدته ، وأنتجته .

وقول أبى نواس فى الخمر :

ولما شربناها ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

فقد كنى : بـ " موطن الأسرار " عن القلب

وقول آخر يرثى رجلا مات بعلة فى قلبه :

ودبت له فى موطن الحلم علة لها كالصلال الرقش شر دبيب[1]

فقد كنى بـ : " موطن الحلم " على القلب

وقول آخر :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

فقد كنى: بـ " مواطن الكتمان " عن القلوب لأنها مواضع الأسرار الخفية .

والبعيدة : هى أن يتكلف المتكلم اختصاصها بأن يضم إلى لازم لازما وآخر حتـى يلفق مجموعا وصفيا مانعا من دخول كل ماعدا مقصوده .

كأن يقول فى الكناية عن الإنسان :" هو حى مستوى القامـة ، عريـض الأظفـار" فهذه المعانى :" حى مستوى القامة ، عريض الأظفار " مجتمعة تعتبر مختصة بالإنســان ، لا توجد فيما عداه فينتقل منها إليه .

وشرط البلاغيين فى هاتين الكنايتين الاختصاص بالمكنى عنه ، وذلك بكون المعنـى المكنى به مختصا بالمكنى عنه ليحصل الانتقال إلى المعنى المقصود .

---

(١) الصلال . جمع صل - بكسر الصاد - وهى الحية التى يسرى سمهـا فـى اللديـغ بحيـث لاينفـع فيـه المصـل ، ومعنى الرقش أن فيها نقط سواد وبياض ، وهى من أشد الحيات إيذاء .

٣- القسم الثالث : الكناية التى يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف:

وهى التى يسمونها " كناية النسبة " ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ومن شواهدها قول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروة والندى   *فى قبه ضربت على ابن الحشرج*

فإنه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات أى ثبوتها له، وأراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات له، فجعلها فى قبة، وجعلها مضروبة عليه ، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية.

وقول الشنفرى الأزدى فى وصف امرأة بالعفة:

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها   *إذا ما بيوت بالملامة حلت*

فإنه لما أراد أن يبين عفافها ، وبراءة ساحتها عن التهمة، وكمال نجاتها عن أن تلام بنوع من الفجور على سبيل الكناية نسبها إلى بيت يحيط بها تخصيصا للنجاة عن اللوم بها.

وقول المتنبى فى مدح كافور:

إن فى ثوبك الذى المجد فيه   *لضياء يزرى بكل ضيا ء .*

حيث أراد أن يثبت المجد لكافور، فترك التصريح بهذا، وأثبته لما له تعلق به وهو الثوب بطريق الكناية .

وقول الكميت الأسدى يمدح أبان بن الوليد البجلى:

يصير أبان قرين السماح   *والمكرمات معا حيث صارا*

وقول أبى نواس يمدح الخصيب أمير مصر:

فما جازه جود ولا حل دونه   *ولكن يصير الجود حيث يصير*

ففى البيت كنايتان أريد بهما اختصاص الممدوح بالجود وقصره عليه، إحداهما فى

قوله:" فما جازه جود ولاحل دونه" والثانية فى قوله:" ولكن يصير الجـود حيث يصير" وقد تلطف أبو نواس فى إثباتها أحس تلطف، وصاغها أدق صياغة، حيث نكر الجود فى الشطر الأول، فعنى جميع أفراد الجود، لأن النكرة فى سياق النفى تعم، ثـم نفـى أن يجـوز ويتعدى ممدوحه، ويحل دونه، فيكون متوزعا يقوم منه شئ بهـذا، وشـىء بـذاك وحيث لايوجد شئ من الجود عند غير الممدوح، فقد ثبت له الجود كله، واختـص بـه، ثـم تـراه يعرف الجود فى الشطر الثانى باللام المفيدة للعموم، ثم يحله فى ذات المكان الذى يحل فيه الممدوح، وبذلك يفيد اختصاصه به على أبلغ وجه وآكده .

أقسام الكناية عند ابن الأثير

لقد نحا ابن الأثير في تقسيم الأسلوب الكنائي نحواً آخر إذ بنى تقسيمه على الوسائط التي توصل إلى المطلوب من القرب ، والبعد ، والقلة ، والكثرة وجعلها على ضربين[1] :

الضرب الأول : ما يحسن استعماله:

والضرب الآخر : ما يقبح استعماله، وهو عيب في صناعة التأليف.

فأما الضرب الأول- الذى يحسن استعماله- فإنه ينقسم إلى أربعة أقسام:

١ – التمثيل:

وهو التشبيه على سبيل الكناية ، وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى، فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر، وتكون تلك الألفاظ، وذلك المعنى مثالا للمعنى الذى قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه، كقولنا:"فلان نقى الثوب" أى منزه عن العيوب.

وللكلام به فائدة لاتكون لو قصدت المعنى بلفظه الخاص، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصورللمدلول عليه، لأنه إذا صور نفسه مثال ما خوطب به كان أسرع إلى الرغبة فيه ، أو الرغبة عنه.فمن بديع التمثيل قوله تعالى: ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً**﴾[2] فأما تمثيله الاغتياب بأكل إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأخ، و لم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتا، ثم جعل ماهو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة- وهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة المعنى الذى وردت لأجله، فشديد المناسبة جدا، وذلك لأن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب

(١)انظر : الجامع الكبير لأبن الأثير – مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد سنة ١٩٥٦م – (ص ١٥٧) .

(٢) الحجرات : ١٢ .

الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة، وأما قوله."لحم أخيه" فلما فى الاغتياب من الكراهة، لأن العقل والشرع معا قد أجمعا على استكراهه، وأمرا بتركه والبعد عنه، ولما كان كذلك جعل بمنزلة لحم الأخ فى كراهته، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله، إلا أنه لايكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبه لأمد فوقها، وأما قوله:" ميتا" فلأجل أن المغتاب لايشعر بغيبته ولايحس. وأما جعله ماهو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها، مع العلم بأنها من أذم الخلال، ومكروه الأفعال عند الله تعالى والناس، فتمزيق العرض مثل أكل الإنسان لحم من يغتابه، لأن ذلك تمزيق على الحقيقة وجعل بمنزلة لحم الأخ لأجل المبالغة فى الكراهةو"الميت" لامتناع الإحساس به، واتصال ماهو مستكره بالمحبة ، لما فى طبع الأنفس من الشهوة : للغيبة والميل إليها . ومن هذا القسم قوله تعالى:﴿**ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾[1] فمثل البخل بأحسن تمثيل، لأن البخيل لايمد يده بالعطية كالمغلول الذى لايستطيع أن يمديده. وإنما قال:" ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك" و لم يقل." ولاتجعل يدك مغلولة" من غير العنق، لأنه قال: " ولاتبسطها كل البسط" فناب ذكر العنق، عن قوله:" كل الغل"، لأن غل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التى جرت العادة بغل اليد إليها.

ومن أمثال العرب"إياك وعقيلة الملح" وذلك تمثيل للمرأة الحسناء فى منبت السوء، لأن عقيلة الملح هى اللؤلؤة، تكون فى البحر، ومن التمثيل قول ابن الدمينة:

أبينى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك؟

فذكر اليمين،وجعلها مثالا لإكرام المنزلة، وذكر الشمال، وجعلها مثالا لهوان المنزلة، لأن اليمين أشرف منزلة من الشمال، وأكرم محلا.

وفى القرآن العزيز مايدل على ذلك، وهو قوله تعالى:﴿ **وأصحاب اليمين**

(١) الإسراء : ٢٩ .

ماأصحاب اليمين فى سدر مخضود.....﴾[1] الآية، فلما جاء إلى ذكر الشمال قال تعالى: ﴿وأصحاب الشمال ماأصحاب الشمال.... ﴾الآية[2] .

٢- الإرداف:

وهو اسم سماه به قدامة بن جعفر الكاتب[3] ، قال ابن الأثير: وأكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا الإرداف فى" التمثيل" وفى الفرق بينهما إشكال ودقة[4] ، فأما" التمثيل" فقد سبق أن تراد الإشارة إلى معنى فتوضع الألفاظ الدالة على معنىآخر تكون تلك الألفاظ، وذلك المعنى مثالا للمعنى الذى قصدت الإشارة إليه، والعبارة عنه، كقولنا:" فلان نقى الثوب" أى منزه عن العيوب.

وأما" الإرداف" فهو أن تراد الإشارة إلى معنى، فيترك اللفظ الدال عليه، ويؤتى بما هو دليل عليه، ومرادف، كقولنا:" فلان طويل النجاد" والمراد به طويل القامة، إلا أنه لم يتلفظ بطول القامة الذى هو الغرض، ولكن ذكر ماهو دليل على طول القامة، وليس نقاء الثوب دليلا على النزاهة عن العيوب، وإنما هو تمثيل له.

والإرداف يتفرع إلى خمسة فروع[5] :

١- فعل المبادهة : كقوله تعالى:﴿ ومن أظلم ممن افترى على ا لله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه﴾[6] فإن المراد بقوله تعالى.﴿لما جاءه﴾ أى أنه سفيه الرأى، يعنى: أنه لم يتوقف فى تكذيبه وقت ماسمعه، و لم يفعل ما يفعل المراجيح[7] العقول

---

(١) الواقعة : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الواقعة : ٤١ .

(٣) نقد الشعر ص٨٨.

(٤) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثورص ١٦٠.

(٥) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص١٦٠-١٦٥.

(٦) العنكبوت : ٦٨ .

(٧) المراجيح :جمع المرجاح أى الكثير الاهتزاز، ولعله أخذه من "نخل مراجيح" أى موقرة بكثرة التمر.

المتثبتون فى الأشياء، فإن من شأنهم إذا ورد عليهم أمر، أو سمعوا خبراً أن يستعملوا فيه الروية والفكر، ويتأنوا فى تدبيره، إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ لما جاءه﴾ أى أنه ضعيف العقل، عازب الرأى، فعدل عن ذلك إلى ماهودليل عليه، وأردف له، وهو قوله:" لما جاءه" وذلك آكد وأبلغ. ومن هذا الباب أيضا" وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلارجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين"(١) والكلام علىذلك كالكلام على الذى قبله.

٢- باب"مثل" وذلك دقيق الصفة لطيف المغزى، وقد كانت العرب تأتى" بمثل" فى هذا الموضع توكيدا للكلام، وتثبيتا لأمره، يقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح:" مثلىلايفعل هذا": أى أنا لاأفعله، فنفى ذلك عن مثله، وهو يريد نفيه عن نفسه، قصدا للمبالغة، فسلك به طريق الكناية، لأنه إذا نفاه عمن يماثله، أو يشابهه، فقد نفاه عنه لا محالة.

وكذلك قولهم أيضا:" مثلك إذا سئل أعطى" أى أنت كذلك ، وهو كثير فى الشعر القديم والمولد، والكلام المنثور، وسبب توكيد هذه المواضع" مثل " أنه يراد أن يجعل من جماعة هذه أوصافهم، تثبيتا للأمر، وتمكينا له ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه، و لم ترس فيه قدمه.

ومثل ذلك قولهم فى مدح الإنسان:" أنت من القوم الكرام " أى لك فى هذا الفعل سابقة، وأنت حقيق به، ولست دخيلا فيه.

وقد ورد هذا الباب فى القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ **ليس كمثله شئ وهو السميع البصير**﴾(٢) وهذا كقولهم:" مثلك لايبخل" فنفى البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدا للمبالغة ؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وهو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه. ونظير ذلك قولك للعربى:" العرب لاتخفر الذمم"؛ وهذا أبلغ من

---

(١) سبأ : ٤٣ .

(٢) الشورى : ١١ .

قولك: " أنت لاتخفر الذمم"

وليس فرق بين قوله تعالى: ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ وبين قوله: " ليس كالله شئ" إلا من الجهة التى نبهنا عليها.

٣- ما يأتى فى جواب الشرط، وذلك من ألطف الكنايات وأحسنها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث** ﴾[١] كأنه قال: إن كنتم منكرين يوم البعث فهذا يوم البعث، فكنى بقوله: " فهذا يوم البعث" عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه، وذلك رادف له، ونظيره قولك: " تنكر حضور زيد فها هو" أى فأنت كاذب ، وهذا من دقائق الكناية .

٤- الاستثناء من غير موجب ، وذلك من غرائب الكناية، كقوله تعالى: ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾[٢] والضريع نبت ذو شوك تسميه قريش " الشبرق" فى حالة خضرته وطراوته، فإذا يبس سمته العرب" الضريع"، والإبل ترعاه طريا، ولاتقربه يابسا، والمعنى ليس لهم طعام أصلا، لأن الضريع ليس بطعام البهائم، فضلا عن الإنس ، وهذا مثل قولك" ليس لفلان ظل إلا الشمس" تريد نفى الظل عنه، وذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم:

وتفردوا بالمكرمات فلم يكن   لسواهم منها سوى الحرمان

والمراد نفى المكرمات عن سواهم، لأنه إذا كان الحرمان من المكرمات فما لهم منها شئ البته:

٥- ليس بشئ مما تقدم ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾[٣] والمعنى المراد من هذا الكلام : إنك أخطأت ، وبئسما قلت ، وقوله " لم أذنت لهم"

---

(١) الروم : ٥٦ .

(٢) الغاشية : ٦ .

(٣) التوبة : ٤٣ .

بيان لما كنى عنه بالعفو، أى مالك أذنت لهم، وهلا استأنيت؟ فذكْرُ العفو دليل على الذنب، ورادف له، وإن لم يكن يذكره، وكذلك جاء قوله تعالى: **﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾**[1] قيل لهم إذا استبنتم العجز عن المعارضة فاتركوا العناد، فوضع قوله: " فاتقوا النار" موضعه، لأن اتقاء النار لصيقه، وضميمه من حيث إنه من نتائجه وروادفه، لأن من اتقى النار ترك المعاندة ، ونظيره أن يقول الملك لحشمه: " إذا أردتم الكرامة عندى فاحذروا سخطى، يريد فأطيعونى، واتبعوا أمرى، وافعلوا ماينتجه حذر السخط، وذلك رادف له، ومن هذا الباب قوله تعالى: **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾** ألاترى إلى لطافة هذة الكناية ؟ فإنها أفادت تكذيب دعواهم ، ودفع ماانتحلوه. وفائدتها هنا أنه روعى فى تكذيبهم أدب حسن، حيث لم يصرح بلفظه ، فلم يقل: كذبتم ، لأن فيه نوع استقباح فى الخطاب ، ووضع قوله تعالى: **﴿ لم تؤمنوا ﴾** الذى هو نفى ماادعوا بيانه موضعه، لأن ذلك رادف له. ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى: **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه، قالوا : "إنا بما أرسل به مؤمنون﴾** فإن الغرض بقولهم: " إنا بما أرسل به مؤمنون" جوابا عن سؤالهم" أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه "؟ إثبات العلم بإرساله، وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة، التى لايدخلها ريب، ولايعترضها شك، لكن عدل عن ذلك إلى ماهو دليل عليه، ورادف له، وهو الإيمان به، أعنى بصالح. وإنما صح منهم بعد ثبوت نبوته عندهم، والعلم بإرساله إليهم، فالإيمان به إذن دليل على العلم بأنه نبى مرسل، وهذا من دقائق الإرداف ولطائفه .

وأمثال ذلك كثيرة كقول الأعراب فى حديث أم زرع فى وصف زوجها:" له إبل قليلات المسارح، كثيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك" فإن الظاهر من هذا القول أن إبله تنزل بفنائه ولاتبرح ليقرب عليه نحرهاللأضياف فإذا ضرب الزهر للقيان نحرها لضيوفه. لقد اعتادت هذه الحالة، وألفتها، وغرض الأعرابية من هذا الكلام

---

(١) البقرة : ٢٤ .

أن تصف زوجها بالجود والكرم، ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه، وإنما أتت بمعان ، هي أدلة على ذلك من غير تصريح بمرادها ، وكذلك قال بعضهم :

وددت - وماتغني الودادة-أنني ... بما في ضمير الحاجبية عالم

فإن كان خيرا سرني وعلمته ... وإن كان شرا لم تلمني اللوائم

فإن المراد من قوله:" لم تلمني اللوائم " أني أهجرها. فأضرب عن ذلك جانبا، ولم يذكر اللفظ المختص به، ولكنه ذكر ماهو دليل عليه ، ورادف له.

٣- المجاورة :

وذلك أن يريد المؤلف ذكر شئ، فيترك ذكره جانبا إلى ماجاوره، فيقتصر عليه، اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود، كقول عنترة:

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم

أراد بالثياب هنا نفسه، لأنه وصف المشكوك بالكرم ولاتوصف الثياب به فثبت حينئذ أنه أراد ماتشتمل عليه الثياب، وفي ذلك من الحسن مالاينكره العارف بهذه الصناعة، وقال عنترة أيضا:

بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر في الشمال مقدم[(١)]

الصفراء هنا الخمر، والذكر للزجاجة حيث هي مجاورة لها، ومشتملة عليها، وذهب بعض المفسرين في قوله تعالى:" وثيابك فطهر " إلى أنه أراد بالثياب القلب أو الجسد، أي قلبك فطهر أو جسدك، وأمثال هذا كثيرة.

٤- الكناية التي ليست تمثيلا ولاإردافا ولامجاورة:

---

(١) ذات أسرة: أي ذات طرائق وخطوط. وقوله بأزهر يعني إبريقا من فضة أو رصاص ومقدم مسدود فمه بخرقة، وقيل مقدم عليه القدام يصفى به .

كقوله تعالى : ﴿**أو من ينشأ في الحلية . وهو في الخصام غير مبين**﴾[1] فكنى عن النساء بأنهن يتربين في الحلية أى الزينة والنعمة، وهو[2] إذا احتاج إلى محاورة الخصوم كان غير مبين ، أى ليس عنده بيان، ولايأتى ببرهان يحاج به من يخاصمه. وذلك لضعف عقول النساء ، ونقصانهن عن فطرة الرجال ، ومن هذا الباب قول أبى نواس :

تقول التى من بيتها خف محملى ... عزيز علينا أن نراك تسير

ألا ترى إلى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله :" التى من بيتها خف محملى" فإنه من ألطفها مذهبا؟ وكذلك قول نصيب:

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

---

(١) الزخرف : ١٨ .

(٢) الضمير "هو " عائد إلى "من" فى قوله تعالى"أو ينشأ فى الحلية" باعتبار لفظها .

الفصــــل الرابـــــع

الأثر البلاغي للأسلوب الكنائي

الكناية واد من أودية البلاغة ، ومقتل من مقاتل البيان العربي ، وغاية لايصل إليها إلا من لطف طبعه ، وصفت قريحته ، وطريق جميل من طرق التعبير الفني ، يلجأ إليه الأدباء للتعبير عما يدور في نفوسهم من المعاني ، ويجيش في صدورهم من الخواطر ، ووسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع ولها أثر كبير في تحسين الأسلوب ، وتزيين الفكرة ، فهي في العبارة الأدبية كالدرة اليتيمة في العقد ، وكالخال في خد الحسناء ، وكالزهرة الجميلة في الروضة الفيحاء ، تضفي عليها جمالا أخاذاً ، وسحراً حلالا ، وتكسوها رونقاً وبهاءاً فتسترعي الانتباه ، وتسترق الأسماع ، وتبهر الألباب ، وتذوب النفس تأثراً بجمالها وتتراقص العواطف تهيأ لعناقها ، وتتحرك الأحاسيس مفتونة بحسنها وبهائها .

وقد بحث البلاغيون قديماً وحديثاً عن سر جمال الكناية وحسنها وعظمتها ، وقد توصلوا في النهاية إلى الكشف عن هذا السر ، وأجملوه فيما يلي :-

١- الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفي طيها برهانها . كقول البحتري :

يغضون فضل اللحظ من حيث مابدا ... لهم عن مهيب في الصدور محبب

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح ، وهيبتهم إياه بغض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال ، وتظهر هذه الخاصة جلية في الكنايات عن الصفة والنسبة .

٢- الكناية تضع لك المعاني في صور المحسات ، ولاشك أن هذه خاصة الفنون ؛ فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك ؛ وجعلك ترى ماكنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموسا ، وذلك لأن المعاني الكلية مستنتجة من الجزئيات المحسوسة ، ومجردة عنها ، وهذه المعاني المجردة لا يدركها العقل واضحة إلا إذا صور

لنفسه محسوسات جزئية ، تكفى عنده لانتزاع صورة مجردة عنها ، وإلا فلا يتصور من اللفظة الموضوعة لها إلا صورة إجمالية خفيفة جداً ، ثم هو لا يتأثر عند سماعها إلا بمساعدة انفعال يصاحب صورتها المجملة ، ويقترن بها أحيانا ، فالكرم والجود والندى الموجودة فى أمثلة الأسلوب الكنائى معان متقاربة ، وجميعها مجردة عن جزئيات محسوسة ، لا تتضح تلك المعانى لدى الذهن إلا إذا صور تلك الجزئيات المنتزعة فيها .

فقولنا : " محمد كريم " تعبير لا يتصور معه السامع صورة الكرم واضحة فى محمد إلا إذا صوره يعطى محتاجا أو سائلا ، أو تصوره يقرى ضيفا ، ونتخيل أن السامع تصور ذلك ، فإنه لايتصور مقدار الكرم من مجرد تصور إعطاء أو تصور قرى ، لأن صفة الكرم متفاوتة شدة وضعفا ولا يمكن معرفة شدتها ، أو ضعفها إلا إذا عرف مقدار العطاء ، والتوسع فى القرى ، ثم الهيئة والحالة التى يكون عليها محمد من ارتياح ومسارعة ، أو قطوب ، وتباطؤ ، وبذلك وضح أن السامع لا يقف أو لا يدرك صورة الكرم من الجملة السابقة إلا أن يمثل لنفسه محمداً فى عطاء ، ولا يدرك تلك الصفة وشدتها إلا إذا تصور كثرة العطاء من جهة ارتياح محمد ومسارعته إلى العطاء من جهة أخرى .

وهذه الأشياء لا يمكن أن يمثلها السامع لنفسه من الجملة السابقة إلا بتعب وإطالة وقوف أمامها وإمعانه فيها ، بخلاف ما إذا سمع قول الشاعر:

عمرو العلا ذو الندى لا يسابقه — مر السحاب ولا ريح تجاريه

أجفانه كالجوابى للوفود إذا — لبوا بمكة ناداهم مناديه

أو أمحلوا خضبوا منها وقد ملئت — قوتا لحاضره منهم وباديه

فإن الشاعر لم يقتصر على وصف عمرو بالندى ، ولو كان منه ذلك ، ماكان لكلامه حلاوة ولا بلاغة ، ولكنه زاد على وصفه مسارعته إلى الندى ، وصور أجفانه التى يوضع فيها الطعام أنها كثيرة ، وكبيرة كالجوابى ، بل زاد على ذلك أنه أقام منادين ينادون من حضر مكة إليها ، ثم لم يقف عند ذلك بل صور أن الممدوح مداوم على هذا حتى فى أيام المحل وقلة الطعام للحاضر والبادى على كثرتهم ، فتصور العقل من جميع هذه الجزئيات صورة الكرم ، وشدتها فى الموصوف على أتم وضوح ، فحصل عنده

بذلك المسرة والاستحسان ، وقام في نفسه من الإعجاب بعمرو والإجلال له مايناسب وضوح الصورة التى تجلت عليه من مجموع العبارات فى الأبيات .

فالكناية فى أغلب صورها هذا شأنها ، فإنها تمثل للذهن المعنى المجرد بصورة جزئياته المحسوسة ، فيدرك من ثم المعنى المقصود على أخصر طريق من غير استكراه ولا عسر فقول الشاعر :

أرغ وأزبد يا زيد   فما وعيدك لى بضائر

فإنه كنى عن شدة الغضب بجزئيات محسوسة يستدل بها عليه .

وقول الآخر :

نصبوا بقارعة الطريق خيامهم   يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه   حب القرى حطبا على النيران

فإن هذه المحسوسات الجزئية يكنى بها عن شدة الكرم فى الممدوحين وارتياحهم إليه وقول الآخر :

خطرات النسيم تجرح خديه   ولمس الحرير يدمى بنانه

فإنه بالغ فى ذكر هذه المحسوسات كناية عن رقة جلده وبضاضته ، كما أنه يفهم بطريق الفحوى أنه مصان متحجب ، وأنه من أهل الترف والنعيم الذين يلبسون الحرير وما إليه فى الرقة ولين الملمس .

٣- الكناية تمكنك من أن تشفى غلتك من خصمك من غير أن تجعل له سبيلا عليك ودون أن تخدش وجه الأدب أو تخرج عن حدود اللياقة والذوق ، وهذا النوع يسمى بالتعريض . ومثاله قول المتنبى فى قصيدة يمدح بها كافوراً ويعرض بسيف الدولة .

رحلت فكم باك بأجفان شادن   علىّ وكم باك بأجفان ضيغم[1]

---

(١) الشادن : ولد الغزال - والضيغم .الأسد ، أراد بالباكى بأجفان الشادن المرأة الحسناء .-

ومـاربة القـرط المليح مكـانــه	بـأجـزع من رب الحسـام المصمم[1]
فلو كان مابى من حبيب مقنع	عـذرت ولكـن مـن حبيب معمم
رمى واتقى رمى ومن دون ماتقى	هـوى كـاسر كـفى وقوسى وأسهمى
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه	وصـدق مـا يعتـــاده مـن تـوهـم

فإنه كنى عن سيف الدولة ، أولا : بالحبيب المعمم ، ثم وصفه بالغدر الذى يدعى أنه من شيمة النساء ، ثم لامه على مبادهته بـالعدوان ، ثـم رمـاه بـالجبن ، لأنـه يرمـى ، ويتقى الرمى بالاستتار خلف غيره ، على أن المتنبى لا يجازيه على الشر بمثله ، لأنه لايـزال يحمل له بين جوانحه هوى قديما ، يكسر كفه وقوسه وأسهمه ، إذا حـاول النضـال ، ثـم وصفه بأنه سيء الظن بأصدقائه لأنه سيء الفعل كثير الأوهام والظنون ، حتى ليظـن أن الناس جميعا مثله فى سوء الفعل ، وضعف الوفاء ، فـانظر كيـف نـال المتنبـى مـن سيـف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفا .

٤ – إن حسن الكناية أو الإرداف يأتى من طريق المبالغة فى الوصف ، لأن فى التعبير بهذا الردف أو التابع من القوة والحسن ماليس فى اللفـظ الموضـوع لذلـك المعنـى . ومـن ذلك قول عمر بن أبى ربيعة فى وصف امرأة بطول الجيد :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل	أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فلم يذكر طول الجيد بلفظه الخاص به ؛ ولكنه عدل عنـه ، وكـان فـى ذلـك مـن المبالغة والجمال ماليس فى اللفظ الأصلى ، لأن بعد مهوى القرط أدل على طـول أكـثر ، لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة الجيد وليست كل طويلة الجيد بعيدة مهـوى القـرط ، إذا كان طول الجيد فى عنقها يسيرا .

=وبالباكى بأكفان ضيغم الرجل الشجاع . يقـول كـم مـن نسـاء ورجـال بكـوا علـى فراقـى . وجزعوا لارتحالى.

(١) القرط . مايعلق فى شحمة الأذن . والحسام ، السيف القـاطع . والمصمـم الـذى يصيـب المفـاصل ويقطعها ، يقول : لم تكن المرأة الحسناء بأجزع على فراقى من الرجل الشجاع .

ولما أراد امرؤ القيس أن يصف ترف محبوبته ، وأن لها من يكفيها قال :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى ، لم تنتطق عن تفضل

فقال " نؤم الضحى " وأن فتيت المسك يبقى فوق فراشها إلى الضحى؛ وكذلك سائر البيت ؛ أى هى لاتنتطق لتخدم ؛ ولكنها فى بيتها متفضلة ؛

ومنه قول ليلى الأخيلية :

ومخرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما

أرادت وصفه بالجود والكرم ، فجاءت بالأرداف والتوابع لهما ، أما مايتبع الجود فنعته بأنه مخرق القميص ، لأن العفاة تجذبه فتخرق قميصه من مواصلة جذبهم إياه ، وأما مايتبع الكرم فالحياء الشديد الذى كأنه من إماتة نفس هذا الموصوف ، وإزالة االأثر عنه ، حتى يخال سقيما ، ومنه قول الحكم الخضرى :

قد كان يعجب بعضهن براعتى حتى سمعن تنحنحى وسعالى

فلم يصف الكبر باللفظ بعينه ، ولكنه أتى بتوابعه ، وهى السعال والتنحنح

٥- بالكناية يستطاع التعبير عن المعانى غير المستحسنة بألفاظ لا تعافها الأذواق ولا تمجها الآذان ، وأمثلة هذا كثيرة فى القرآن الكريم الذى لا يحوى إلا العبارة المهذبة ، والكلام العذب السائغ ، قال ابن فارس : يكنى عن الشىء : فيذكر بغير اسمه تحسينا للفظ ، أو إكراما للمذكور ، وذلك كقوله جل ثناؤه : "وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا"(١) وقالوا إن الجلود فى هذا الموضع كناية عن آراب الإنسان ؛ وكذلك ، قوله جل ثناؤه : "ولكن لا تواعدوهن سرا"(٢) إنه النكاح ، وكذلك "أوجاء أحد منكم من الغائط"(٣) ماطمأن من الأرض . كل هذا تحسين للفظ ، والله جل ثناؤه كريم يكنى ، كما قال فى قصة عيسى وأمه عليهما السلام :"ما

---

(١) فصلت : ٢١ .

(٢) البقرة : ٢٣٥ .

(٣) النساء : ٤٣ .

المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام"[1] كناية عما لابد لآكل الطعام منه[2] .

وحسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة ، ومن ذلك ما كتب أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة عن المعتضد با لله إلى خمارويه ، وقد أوصى خمارويه بابنته التى تزوجها المعتضد با لله ، فكان مما كتب ابن ثوابة :" أما الوديعة فهى بمنزلة ما انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها ، وحياطة لها " واستحسنت الكناية عن الزوجة بالوديعة حتى صار الكتاب يعتمدونها ، وقال بعضهم : إن تسمية إياها بالوديعة نصف البلاغة .

٦- إن الأسلوب الكنائى ينزع إلى اللغة الطبيعية ، بتمثيل الأشياء بخصائصها ومن ذلك قول أبى نواس :

ولما شربناها ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

فإلى أين دب دبيب راح أبى نواس ؟ إلى موطن الأسرار ، وما موطن الأسرار ؟ أليس الدماغ ؟ فقد نحى الشاعر إلى إطلاق لفظ ، وإرادة لازم معناه ، وقد دل فى ذلك على الشىء بأوصافه ، ، وفى هذه الدلالة نزوع إلى اللغة الطبيعية التى تمثل الأشياء بتمثيل خصائصها ، ومثله قول وديع البستال فى تعريب محاسن الطبيعة :" ولا تبعدوا عن جانيات الشهد المتطاير هنا وهنالك تقبل ثغور الأزهار " حيث كنى بجانيات الشهد عن النحل .

وقول الشاعر :

فارتشف ريق العناقيد يبد ما تقاسى من تباريح الكمد

حيث كنى بريق العناقيد عن الخمرة ، وفى ذلك نزوع إلى اللغة الطبيعية

---

(١) المائدة : ٧٥ .

(٢) كتاب الصاحبى لأحمد بن فارس ص٢١٩ .

٧- إن الكناية قد تكون طريقا من طرق الإيجاز والاختصار كقوله تعالى كناية عن كثير من الأفعال "لبئس ماكانوا يعملون"[1] وقولهم كناية عن الجامع لكل شيء :" هو سفينة نوح "

٨- إنك لترى فى الكناية من العجب العجاب ، ومن غريب الصنعة ، ومن بديع السحر إذا كانت فى باب الصناعات الخسيسة الحقيرة بذكر منافعها كما قيل لحائك :

" ما صناعتك ؟ " قال " زينة الأحياء ،وجهاز الموتى "وقال ابن باقلانى - بائع فول"

أنا ابن الذى لا ينزل الدهر قدره   وإن نزلت يوما فسوف تعود

ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره   فمنهم قيام حوله وقعود

---

(١) المائدة : ٦٢ .

الفصـــل الخامـــس

الكنايـة فى القرآن الكـريم

قبل أن أتحدث عن الكناية فى القرآن الكريم ينبغى أن أشير فى إيجاز إلى آراء علماء البيان فى الكناية فى كونها من قبيل الحقيقة أو المجاز ؛ إذ إن بعضهم ممن ينكرون وقوع المجاز فى القرآن ينكرون وجودها بناء على أنها من المجاز فأقول مستعينا بالله وحده طالبا منه العون والتوفيق .

لقد اختلف علماء البيان فى الكناية ، فمنهم من قال : إنها من باب الحقيقة، ومنهم من قال : إنها من باب المجاز ، ومنهم من قال : إنها لفظة يتجاذبها جانبا الحقيقة والمجاز، ومنهم من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز .

فأما من جعلها من باب الحقيقة فهو الإمام عبد القاهر الجرجانى ، فقد قال فى التعريف بها " والمراد[1] بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ، وردفه[2] فى الوجود فيومىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه . مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد "[3] يريدون طول القامة ، و" كثير رماد القدر " يعنون : كثير القرى ، وفى المرأة : " نؤوم الضحى " والمراد أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا فى هذا كله - كما ترى - معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه فى الوجود ، وأن يكون إذا كان ، ألا ترى أن القامة إذا طالت : طال النجاد؟

واذا أكثر القرى : كثر رماد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟

---

(١) دلائل الإعجاز ص٥٢ .

(٢) الردف -بكسر الراء وسكون الدال- هو الذى يركب خلف الراكب ، وكل شيء تبع شيئا فهو ردفه .

(٣) النجاد ككتاب : ما وقع على العاتق من حمائل السيف .

وإيضاح ذلك أن لكل تركيب من التراكيب التى ساقها عبد القاهر معنيين : أحدهما متبوع وهو المعنى الكنائى المراد كطول القامة - مثلا - والمتبوع هو المقصود بالإفادة ، و لم يذكر لفظه ، والتابع - وإن ذكر لفظه - لم يقصد لذاته ، بل ليكون وسيلة ورمزا إلى متبوعه ، فالمعنى الكنائى عند عبد القاهر هو المتبوع أو الملزوم ، والمعنى الحقيقى : هو التابع أو اللازم ، ومن هنا كانت الكناية عند عبد القاهر حقيقة إذ إن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له سواء أكان ما وضع له مقصودا لذاته أم مقصودا لينتقل منه إلى غيره ، والكناية من النوع الثانى أى أنه لفظ مستعمل فيما وضع له لينتقل منه إلى غير الموضوع له ، بحيث يكون غير الموضوع له هو: متعلق الإثبات والنفى ، ومرجع الصدق والكذب ،وعلى هذا تفارق المجاز من أوسع الأبواب لأنها حقيقة وكفى.

ورأى عبد القاهر هذا رأى حسن ووجيه لمطابقته للواقع إذ الواقع أن المعنى الحقيقى لازم وتابع فى الوجود للمعنى الكنائى ، لأن القامة إذا طالت : طال النجاد ، واذا كثر القرى : كثر رماد القدر ، واذا كانت المرأة مترفة ، لها من يكفيها أمرها : ردف ذلك أن تنام إلى الضحى وهكذا .

وقد تبع عبد القاهر فى هذا الاتجاه كثير من علماء البيان منهم الفخر الرازى ، وأبو يعقوب السكاكى ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والنويرى .

وأما من جعلها من باب المجاز فهو أمير المؤمنين يحى بن حمزة العلوى فقد قال فى كتابه " الطراز " كاشفا النقاب عن منزلتها فى البيان العربى : "اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة وركن من أركان المجاز " وقد تبعه فى هذا الاتجاه كثير من علماء البيان ، واحتجوا بأن تكون الكناية تعبيرا عن معنى لا يذكر بلفظه الموضوع له ، بل بلفظ يدل عليه ، فيعبر به عن ذلك المعنى ، وقالوا: إن المجاز بالكناية ليس من جهة الإفراد ، بل من جهة التركيب كقوله :" فلان نهاره صائم وليله قائم " ، فإن الصيام والقيام حقيقتان ، والليل والنهار حقيقتان ، وإنما نسبة الصوم إلى النهار والقيام إلى الليل هو المجاز[1] .

---

(١) جوهر الكنز : لنجم الدين بن الأثير الحلبى المتوفى سنة ٧٣٧ هـ تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ص١٠١ .

وأما من قال : إنها لفظة تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز فضياء الدين بن الأثير الجزرى[1] ومن يقول بقوله . واحتجوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿**أولامستم النساء**﴾[2] وقالوا إن ذلك يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منهما يصح به المعنىٰ ولهذا ذهب الشافعى – رحمه الله – إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد للجسد ، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس الجماع ، فقد تجاذب هذه اللفظة جانبا حقيقة ومجاز ، وكذلك قوله تعالى: ﴿**إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة**﴾[3] فالنعجة يجوز أن يكنى بها عن المرأة ، ويجوز استعمالها فى حقيقتها وهى الأنثى من النعم[4] .

وأما من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز فالإمام محمد بن سنان الخفاجى، وأبو هلال العسكرى والغانمى ، ومن يقول بقولهم ، واحتجوا على ذلك بأن الكناية عبارة عن ذكر المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وهذا لا يجوز أن يكون حدا ولا رسما ، لأن الحد والرسم لابد فيهما من اطراد وانعكاس فى الحد وهذا الحد الذى ذكره لا يطرد ولا ينعكس ، لأنه يقتضى أن كل مالا يكون ذكرا للمعنى القبيح باللفظ الحسن فلا يكون كناية وليس الأمر كذلك ، فإن الكناية تقع على المعنى الحسن والمعنى القبيح كقولك :" فلان طويل النجاد " تعنى بذلك طول قامته ، فهذا اللفظ حسن كنى به عن معنى حسن ، فينتقض عليهم ذلك الحد[5] .

وأنا أميل إلى رأى الشيخ عبد القاهر الذى يجعل الكناية من قبيل الحقيقة ، لأنه – كما أشرت قبلا – مطابق للواقع.، ومن هذا الرأى أنطلق إلى الحديث عن الكناية فى القرآن الكريم ، فأقول : إن الكناية موجودة فى القرآن الكريم وأنها فيه من قبيل الحقيقة ، وليست من قبيل المجاز .

---

(١) فى المثل السائر ، ونقله صاحب الطراز ج١ ص٣٦٨ .

(٢) النساء : ٤٣ .

(٣) ص : ٢٣ .

(٤) جوهر الكنز ص ١٠٢ .

(٥) جوهر الكنز ص ١٠٣ .

ولقد حفل القرآن الكريم بضروب شتى منها ، ففيه الإرداف ، ومنه قوله تعالى: ﴿**وقضى الأمر**﴾[1] وحقيقة ذلك ، وهلك من قضى الله هلاكه ونجا من قضى نجاته ، وعدل عن الحقيقة للدلالة والتنبيه على ذلك بأمر مطاع لايرد قضاؤه .

ومنه قوله تعالى : ﴿**فيهن قاصرات الطرف**﴾[2] أى عفيفات ، قد قصرت عفتهن طرفهن فى بعولتهن ، وعدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الإرداف ؛ لأن كل من عف غض الطرف عن مطموح ، فقد يمتد نظر الإنسان إلى شيء ، وتشتهيه نفسه ؛ ويعف عنه مع القدرة عليه ، لأمر آمر ، وقصر طرف المرأة على بعلها أو قصر طرفها حياء وخفرا أمر زائد على العفة ، لأن من لا يطمح طرفها لغير بعلها ؛ أو لا يطمح حياء وخفرا ، فإنها ضرورة تكون عفيفة ، وليست كل عفيفة قاصرة الطرف ، فلذلك عدل عن اللفظ الخاص إلى الإرداف .

وفيه الإشارة كقوله تعالى : ﴿**وغيض الماء**﴾[3] فإن غيض الماء يشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ، ومطر السماء ، ولولا ذلك لما غاض الماء ومنها أيضا قوله تعالى: ﴿**وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين**﴾[4] ففيه إشارة إلى كل ما تميل إليه النفس من الشهوات التى لا تنحصر ، وتلذ الأعين من المرئيات التى لا تنضبط ، لنعلم أن هذا اللفظ القليل قد دل على معان لاتنحصر عدا ، ومنها قوله تعالى :﴿**وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾[5] ، فانظر إلى ماأشارت إليه لفظة " الأمر" من ابتداء نبوة موسى - عليه السلام - وخطاب الحق له ، وإعطائه الآيات البينات من إلقاء العصا لتصير ثعبانا، وإخراج يده بيضاء " وإرساله إلى فرعون ، وسؤاله شد عضده بأخيه هارون إلى جميع ماجرى فى ذلك المقام ... كل ذلك أشارت إليه هذه اللفظة الواحدة.

---

(١) هود : ٤٤ .

(٢) الرحمن : ٥٦ .

(٣) هود : ٤٤ .

(٤) الزخرف : ٧١ .

(٥) القصص : ٤٤ .

وفيه الرمز والإيماء كقوله تعالى :﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾[1] " فقد أشارت كلمة " ألوف " إلى العدد ، فقد روى بعض العلماء أنهم كانوا أربعة آلاف، وروى من طريق آخر أنهم كانوا ثلاثين ألفا ، وصحح العلماء الرواية الثانية بقوله تعالى :﴿ألوف﴾ فجمعها جمع الكثرة ، ولو كانت الرواية الأولى أصح لقال سبحانه "آلاف" و لم يقل : "ألوف" ولا شك أن الذى صور هذا المعنى هو اللفظ الذى رمز به إلى العدد.

وفيه التمثيل كقوله تعالى:﴿واستوت على الجودى﴾[2] فإن حقيقة ذلك ، وجلست على هذا المكان ، فعدل عن الحقيقة الى التمثيل لما فى الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لازيغ فيه ولا ميل ، ولا حركة معه ولا اضطراب ، فإن هذا الجلوس تسكن معه قلوب أهل السفينة لسكونها ، ولا تسكن إلا بهذا الجلوس المنعوت بالاستواء، وبذلك يحصل تمام الأمن، وكمال الطمأنينة ولا يحصل ذلك من قولنا : جلست ، ولا مايدل على معناه فقط ، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة إلى التمثيل ، وماكان ذلك إلا لحسن التصوير وجمال التعبير

وفيه التعريض[3] كقوله تعالى :﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾[4] فقول إبراهيم : "فاسألوهم إن كانوا ينطقون"تعريض بجهلهم وضعف عقولهم ، فكأنه يقول لهم : كيف تعبدون من لا يجيب إن سئل ، ولا ينطق إن كلم ، وتجعلونه شريكا لمن له الخلق والأمر ؟

كذلك توجد فى القرآن الكريم شواهد لأقسام الكناية المصطلح عليها عند علماء البيان وهى: الكناية المطلوب بها صفة ، والكناية المطلوب بها موصوف ، والكناية

---

(١) البقرة : ٢٤٣ .

(٢) هود : ٤٤ .

(٣) ذكرت هذا بناء على أن أكثر علماء البيان يجعلون التعريض نوعا من أنواع الكناية ، وصورة من صورها .

(٤) الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣ .

المطلوب بها نسبة . فمن الكناية عن الصفة قوله تعالى: ﴿**إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة**﴾[1] حيث كنى بالتحيز عن الهزيمة ، وقوله تعالى: ﴿**وثيابك فطهر**﴾[2] " كناية عن عفة النفس وطهارة الذيل .

ومن الكناية عن الموصوف قوله تعالى : ﴿**وحملناه على ذات ألواح ودسر**﴾[3] فقد كنى بألواح ودسر عن السفينة لأن بمجموع الأمرين بمجتمعين وصف مختص بالسفينة ، وقوله تعالى : ﴿**كأنهن بيض مكنون**﴾[4] كناية عن حرائر النساء ، فإن العرب كانت من عادتها الكناية عن حرائر النساء بالبيض ، قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

وقوله تعالى : ﴿**أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين**﴾[5] فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترف والتزين والتشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعانى .

ومن الكناية عن النسبة قوله تعالى : ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[6] بناء على الراجح من جعل الكاف أصلية لا زائدة وحينئذ يكون كناية عن نفى مثله تعالى ، إذ لو كان له مثل لكان هو سبحانه : مثل مثله ، والله سبحانه موجود قطعا ، فنفى مثل المثل حينئذ يؤدى إلى نفيه سبحانه وهو باطل .

وحينئذ لا فرق بين قولك : " ليس كالله شيء " وقولك : ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ إلا ماتعطيه الكناية من فائدتها ، وهى المبالغة فى نفى المماثلة عن ذاته تعالى ... وذلك هو شأن الكناية دائماً .

---

(١) الأنفال : ١٦ .

(٢) المدثر : ٤ .

(٣) القمر : ١٣.

(٤) الصافات ٤٩ .

(٥) الزخرف : ١٨ .

(٦) الشورى : ١١ .

السر فى عظمة الكناية وجمالها فى القرآن الكريم

إنك إذا تأملت الأسلوب الكنائى فى القرآن – وكنت من أرباب الفصاحة والبيان- أدركت أنه فوق طاقة بنى الإنسان ، وأنه فيه من روعة التعبير ، وجمال التصوير، وألوان الأدب والتهذيب مالا يستقل به بيان ،ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن ، وأنه ينطوى تحته لطائف وأسرار ، لا يصل إلى مكنونها إلا من منح ذوقا رقيقا، يدرك ما احتجب خلف الأستار من الأسرار ، وأن فيه من السحر الحلال مايبهر المهرة من صناع الكلام ومن هنا تظهر عظمة الأسلوب الكنائى فى القرآن ، ويتضح جماله الخلاب ، وحسنه الفتان ، وتأثيره الذى لا يدانيه تأثير ونستطيع أن نجمل السر فى عظمته وجماله فيما يلى :

١- الكناية فى القرآن تمتاز بالإيجاز اللطيف العجيب الذى لا يستطيع محاكاته أرباب الفصاحة والبيان من بنى الإنسان . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿نساؤكم حرث لكم﴾(١) لقد كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بكلمة " الحرث " عن " المعاشرة الزوجية " وهذا اللفظ فضلا عما فيه من الأدب وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية، وتنطوى تحته معان كثيرة تحتاج فى التعبير عنها إلى آلاف الكلمات. انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه ، وصلة الزوج بزوجه فى هذا المجال الخاص ، وبين ذلك النبت الذى يخرجه الحرث، وذلك النبت الذى تخرجه الزوجة، ومافى كليهما من تكثير وعمران وفلاح، كل هذه الصور والمعانى تنطوى تحت كلمة" الحرث"التى كنى بها القرآن عن المعاشرة الزوجية(٢) ، فهل هذه الكناية يستطيع أن يحاكيها بنو الإنسان مهما أوتوا من الفصاحة والبيان؟ إنها حقا لا توجد إلا فى القرآن، ولاتصدر إلا عمن خلق الإنسان وعلمه البيان.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:﴿تبت يد أبى لهب وتب﴾(٣) فهذه كناية عن أنه

---

(١) البقرة:٢٢٣ .

(٢) التصوير الفنى فى القرآن للمرحوم سيد قطب ص٧٨ .

(٣) المسد : ١ .

جهنمى وأن مصيره إلى اللهب . انظر إلى هذه الكناية، وما فيها من الإيجاز اللطيف العجيب الذى تنحنى لعظمته جباه أساطين البيان، لقد اختصرت مقدمات لاأهمية لها بالتنبية على النتيجة الحاسمة التى يتقرر فيها المصير، فلخصت فى ومضة واحدةهذا المصير الذى يراد تصويره .

٢- الكناية فى القرآن تمتاز بجمال التعبير،فهى مؤدبة، مهذبة وأنها فى هذا الميدان قد حازت قصب السبق، وتربعت على عرش الجمال،وعجز عن إدراك شأوها صفوة فرسان البيان، بعد أن ذابت نفوسهم تأثراً بما فيها من الروعة والسحر الحلال :

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ولكن لاتواعدوهن سراً﴾[1] فقد كنى القرآن الكريم فى هذه الآية عن الجماع بالسر. تأمل هذة الكناية، ومدى مافيها من اللطائف والأنوار والأسرار. إن فى الكناية بالسر عن الجماع من ألوان الأدب والتهذيب، ما يعجز عن وصفه أساطين البيان، وفيها من جمال التعبيرمايسترق الأسماع،ويهز العواطف، ويحرك الأحاسيس والمشاعر. لقد ألبست الجماع الذى يتم فى السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة والبيان، أبعد هذا يقال: إن الكناية فى القرآن يستطيع أن يحاكيها فرسان البيان؟ أبداً والله إنهم من العجز بحيث لايمكنهم فهم ماتنطوى عليه الكناية فى القرآن من الأسرار[2] .

ومن ذلك قوله تعالى:﴿والذين هم لفروجهم[3] حافظون﴾ وقوله تعالى : ﴿والحافظين[4] فروجهم والحافظات﴾ فقد كنى القرآن فى الآيتين[5] بالفروج عن العفة

---

(١) البقرة :٢٣٥ .

(٢) انظر ص ١١٠ من كتابنا "الإعجاز فى نظم القرآن " .

(٣) المؤمنون : ٥ .

(٤) الأحزاب:٣٥ .

(٥) المراد بالفروج فى الآيتين فروج القمصان والثياب على حد قوله تعالى "وثيابك فطهر كناية عن العفة و طهارة الذيل" انظر البرهان للزركشى ج٢ص ٣٠٥، ومجازات القرآن للشريف الرضى ص ٣٥٣، وتأويل القرآن لابن قتيبة ص ١٠٧" .

وطهارة الذيل ، فما تنفرج ثياب المؤمنين عن ريبة ، ولا تتكشف دروع المؤمنات عن منكر بل المؤمنون والمؤمنات نقية ثيابهم طاهرة أذيالهم عفيفة نفوسهم. وقوله تعالى: ﴿**ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾(١)

فإحصانها فرجها كناية عن طهارة ذيلها وعفتها الكاملة، وكان النفخ فى جيب درعها كما ورد فى كتب التفسير.

إن فى الكناية بالفروج" فروج القمصان والثياب" عن عفة النفس وطهارة الذيل من روعةالتعبير ، وجمال التصوير ، وألوان الأدب والتهذيب مالا يستقل به بيان ولايدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن.

٣- الأسلوب الكنائى فى القرآن يمتاز بحسن التصوير، وقوة التأثير،فهو يوضح المعانى بالمبالغات الحسنة الساحرة، فيقرب الفكرة المجردة من الصورة المحسة فتستحيل المبالغة فيه بلاغة، ويصير التهويل فيه تخييلا,فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط، فتقعد ملوما محسورا**﴾(٢) ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة فى صورة بغيضة منفرة؟ فهذه اليد التى غلت إلى العنق، لاتستطيع أن تمتد؛ وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذى لاتستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولاعطية، والتعبير ببسطها كل البسط ، يصورهذا المبذر الذى لايبقى من ماله على شئ كهذا الذى يبسط يده فلا يبقى بها شئ، وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قويا مؤثرا(٣) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿**يأيها الذين أمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ....**﴾(٤)

---

(١) التحريم : ١٢ .

(٢) الإسراء:٢٩ .

(٣) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى ص ٢٢٦ .

(٤) الحجرات:١٢ .

انظر كيف مثلت الآية الغيبة بأكل لحم الإنسان، ولكن أى إنسان؟ إنه أخ، وإن المغتاب يأكل لحم أخيه، وأى أخ هذا ؟ إنه الأخ الميت الذىتفسخ لحمه، وفاحت روائحه، وكان للدود منه نصيب، ومن يستطيع أن يقبل على أكل لحم إنسان أخ ميت متفسخ؟

هذا الاغتياب ذكر لمساوئ الناس، وتمزيق لأعراضهم، ونهش لسمعتهم وغض لفضائلهم، لافى وجوههم، ولابين أيديهم، وإنما من وراء ظهورهم، إنه فعل الجبناء الضعفاء الذين لايظهرون قوتهم إلا فى الخلاء، وعند فراغ الساحة من الرجال، وهؤلاء الذين يغتابون الناس مثلهم كمثل التافهين الذين ينتظرون موت الإنسان ليكون بلاعقل ولاحس ولاحياة لينهشوا لحمه، وإن كان نتنا، ذلك لأنهم لم يعتادوا الأطايب فى الحياة، وإنما استساغوا الأقذار والأنتان، ألا تحس بروعة الكناية القرآنية، وجمال تصويرها، وحسن أدائها وقوة تأثيرها؟

ومن ذلك أيضا قوله تعالى. ﴿فاتقوا النار التى وقودها[1] الناس والحجارة﴾

فقد كنى القرآن بهذه الآية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة ، أى لاتعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة. تأمل هذة الكناية، ومدى ما فيها من جمال التعبير وروعة التصوير، وقوة التأثير ، إنها عبرت عن العناد عندظهور المعجزه بالنار العظيمة ، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير ثم إن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكرى المجرد فى صورة محسة ملموسة، و لم يقف عند هذا الحد من التجسيم والتشخيص، بل تعداه إلى التصيير والتحويل فحوله إلى نار ملتهبة متأججة متوهجة . أرأيت أعجب من هذا التصوير، ولا أروع وألذ من هذا التعبير[2] ؟ إنها الكناية القرآنية تبهرك بجمالها، وتأسرك سحر بيانها، وتعجزك عن محاكاتها.

ومن هذا القبيل الكناية عن الشئون الغيبية بالمفاتح فى قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح

(١) البقرة: ٢٤ .

(٢) انظر ص ١٠٩ من كتابنا" الاعجاز فى نظم القرآن" .

الغيب لايعلمها إلاهو﴾[1] والكناية عن أزلية الأرزاق والمقدرات بالخزائن فى قوله تعالى : ﴿**وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر[2] معلوم**﴾

٤- **الكناية فى القرآن تمتاز بنظمها البديع، وتأليفها الفريد، فمعناها لايؤدى بغير لفظها، ولفظها لايصلح إلا لمعناها، حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما، فلا يدرى أيهما التابع؟ وأيهما المتبوع؟ وهى من هذه الناحية، تعد من مظاهر الإعجاز فى القرآن.**

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**ما المسيح ابن مريم[3] إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام**﴾ فقوله: كانا يأكلان الطعام" كناية عن" قضاء الحاجة" تأمل هذة الكناية، ومافيها من دقة التعبير، وجمال الصيغة، وبديع النظم، ثم حدثنى بربك هل يمكن أن تؤدى هذة الكناية بغير لفظها؟وهل لفظها يصلح لغير معناها؟ أبدا وا لله إن الترابط بينهما وثيق، وإن الانسجام بينهما قوى، وإن التآلف بينهما محكم وعميق، فالمأكول لابد من صيرورته إلى العذرة؟

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى: ﴿**أومن[4] ينشأ فى الحلية وهو الخصام غير مبين**﴾ كناية عن "النساء" إن هذة الألفاظ القرآنية لاتصلح إلاللكناية بها عن النساء، وإن النساء لايكنى عنهن فى هذا المقام إلا بهذة الألفاظ فالنساءينشأن فى الترف والتزين والتشاغل عن النظر فى الأموز، ودقيق المعانى، أرأيت أجمل من هذة الصياغة، ولاأمتع من هذا التعبير، ولاألذمن هذا التصوير؟

ومن هذا القبيل أيضا، الكناية بالمراودة عن طلب الجماع فى قوله تعالى: ﴿**وراودته التى هو فىبيتهاعن نفسه**﴾[5] والكناية عن المعانقة باللباس فى قوله

---

(١) الأنعام : ٥٩.

(٢) الحجر: ٢١ .

(٣) المائدة: ٧٥ .

(٤) الزخرف: ١٨ .

(٥) يوسف : ٢٣ .

تعالى: ﴿هن لباس لكم[1] وأنتم لباس لهن﴾ والكناية عن البول ونحوه بالغائط في قوله تعالى: ﴿أو جاء أحدمنكم من الغائط[2]﴾والكناية عن الأستاه بالأدبار في قوله تعالى: ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾[3]

---

(1) البقرة : ١٨٧ .

(2) النساء : ٦ .

(3) محمد : ٢٧ .

خـــــــاتمـة

لقد قمت فى هذا البحث بدراسة الكناية فى مؤلفات القدماء والمحدثين من علماء البيان العربى، ثم كشفت النقاب عن أسرارها البلاغية، ثم بحثت عنها فى رياض القرآن الكريم، متتبعا شواهدها، مزيحا الستار عن بعض محاسنها ومفاتنها، ثم أمطت اللثام عن أسباب عظمتها وجمالها فى هذا الكتاب العظيم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثم توصلت فى نهاية المطاف إلى النتائج الآتية:-

١- عرفت الكناية كصورة بيانية عامة فى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى على يد أبى عبيدة معمر بن المثنى، فقد أراد منها ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلى .

٢- ظلت عامة، ودون تعريف يميزها عن غيرها من الصور البيانية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

٣- بدأت فى التميز والاستقلال عن غيرها فى بداية القرن الرابع الهجرى على يد قدامة ابن جعفر الكاتب ، فهو أول من وضع لها تعريفا، يميزها عن غيرها من صور البيان العربى .

٤- وضحت سماتها ، وتحددت معالمها ، واستقلت عما عداها ، وظهرت محاسنها فى النصف الأخير من القرن الخامس الهجرى على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى ، فقد عرفها ، وبين مزيتها على التصريح ، وكشف النقاب عن محاسنها ووضع شروطا لحسنها .

٥- تميزت تميزا تاما ، واستقلت استقلالا كاملا ، ولبست ثوبا قاتما من الفلسفة والمنطق فى بداية القرن السابع الهجرى على يد الإمام أبى يعقوب السكاكى ، فقد عرفها، وعلل لتسميتها ، وفرق بينها وبين المجاز ، ثم ذكر أقسامها ، وأنواعها بطريقة فلسفية منطقية ، تكد الذهن ، وترهق الفكر ، ولاتتلاءم مع جمال هذه الصورة البيانية ولطافتها .

٦- لبست ثوبا من السحر والفتنة، واتسعت دائرة البحث فيها، فتخطت حدود اللغة العربية إلى غيرها من اللغات الأخرى كالسريانية والفارسية فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى على يد الأديب الكبير ضياء الدين ابن الأثير ، لقد اعتمد فى دراستها على ذوقه وحسه ، فأكثر من شواهدها الأدبية ، وخرجها تخريجا حسنا، وحللها تحليلا جميلا ، ولم يكتف بدراستها فى اللغة العربية ، كما فعل غيره من العلماء السابقين ، بل تعدى هذا إلى دراستها فى اللغة السريانية والفارسية.

٧- بدأ البحث عنها فى القرآن الكريم فىأواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى على يد الأديب المصرى الكبير ابن أبى الإصبع المصرى فقد كشف عن فوائدها فى القرآن بطريقة أدبية فريدة لم يسبق إليها، وبأسلوب يتلاءم مع طبيعتها ، ويتناسب مع جمالها ولطافتها.

٨- خلعت رداء حسنها وجمالها، وذبلت زهرتها، وانزوى عودها، ودخلت فى دائرة الفلسفة والمنطق مرة أخرى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى على يد العلوى، فقد تتبع تعريفاتها السابقة بالنقد والتحليل معتمدا فى ذلك على عقله وثقافته المنطقية.

٩- اتسع البحث عنها فى القرآن الكريم فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى على يد الزركشى ، فقد كشف عن أسبابها فى القرآن بأسلوب أدبى رائع ، وبطريقة سهلة ميسورة ، لاتكد الذهن ، ولاترهق الفكر ، وقد أكثر من شواهدها القرآنية ، مبينا موضع الكناية فى كل شاهد منها.

١٠- لم تظهر أسرارها البلاغية بوضوح إلا فى العصر الحديث ، وبخاصة عل يد المرحوم الشيخ على الجارم ، والأستاذ مصطفى أمين ، والدكتور أحمد بدوى ، والدكتور بدوى طبانة.

١١- إن القرآن الكريم قد اشتمل على معظم شواهد التقسيمات الكنائية المصطلح عليها عند المتأخرين من علماء البلاغة.

١٢- لقد تميزت الكناية فى القرآن الكريم بطائفة من الخصائص كانت السر فى

عظمتها، والسبب فى خلودها.

هذا جهدى فى دراسة الأسلوب الكنائى قد سجلته فى هذة الصفحات ، فإن أكن قد وفقت ، فذلك الفضل من الله ، وإن كنت قد قصرت فى بعض الجوانب أوجانبنى الصواب ؛ فأنا بشر والبشر ديدنهم التقصير ، وفى طبعهم الخطأ ، والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من طلاب العلم العاملين ، وأن يهيئ لنا الأسباب الموصلة إلى تحصيله ، وأن يعيننا على استيعابه والعمل به إنه سميع مجيب وهو حسبى ونعم الوكيل؟

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

دكتور

محمود السيد شيخون

عميد كلية الدراسات الإسلامية

جامعة الأزهر

فهرس الموضوعات

فهرس المراجع

١- القرآن الكريم

٢- أسرار البلاغة- عبد القاهر الجرجانى ط المنار سنة١٩٤٧م

٣- أسس النقد الأدبى- أحمد أحمد بدوى الطبعة الثانية

٤- الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز- عز الدين بن عبد السلام ط الأستانة سنه ١٣١٣هـ

٥- الإعجاز فى نظم القرآن - الدكتور/ محمود السيد شيخون ط القاهرة سنه ١٣٩٧هـ

٦- الإيضاح- الخطيب القزوينى ط القاهرة سنة ١٩٥٠م

٧- البديع- ابن المعتز ط القاهرة سنة١٩٤٥م

٨- بديع القرآن - ابن أبى الإصبع المصرى ط القاهرة سنة ١٩٥٧م

٩- البرهان فى علوم القرآن- الزركشى ط القاهرة سنة ١٩٥٥م

١٠- البلاغة الواضحة- على الجارم، ومصطفى أمين ط القاهرة سنة ١٣٨٣هـ

١١- البيان والتبيين- الجاحظ ط القاهرة سنة ١٩٤٨م

١٢- تأويل مشكل القرآن- ابن قتيبة ط القاهرة سنة ١٩٥٤م

١٣- التبيان فى علوم القرآن- محمد الصابونى ط بيروت سنة ١٩٦٤م

١٤-تحرير التحبير- ابن أبى الإصبع المصرى ط القاهرة سنة ١٩٦٤م

١٥- التصوير الفنى فى القرآن- المرحوم سيد قطب ط القاهرة سنة ١٩٦٦م

١٦- الجامع الكبير- ضياء الدين ابن الأثير- ط بغداد سنة ١٩٥٦م

١٧- جوهر الكنز- نجم الدين ابن الأثير الحلبى ط القاهرة تحقيق الدكتور زغلول سلام

١٨- جواهر البلاغة- أحمد الهاشمى: ط القاهرة سنة ١٩٤٠م

١٩- خزانة الأدب- ابن حجة الحموى: ط القاهرة سنة ١٩٠٤م

٢٠- دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجانى: القاهرة سنة ١٣٣١هـ

٢١- سر الفصاحة- ابن سنان الخفاجى: ط القاهرة سنة ١٣٥٠هـ

٢٢- الصاحبى- ابن فارس: ط القاهرة سنة ١٩١٠م

٢٣- الصناعتين- أبو هلال العسكرى: ط القاهرة سنة١٩٥٢م
٢٤- الطراز- يحيى العلوى- ط المقتطف سنة ١٩١٤م
٢٥- علم البيان- الدكتور بدوى طبانة: ط القاهرة سنة ١٩٦٢م
٢٦- علوم البلاغة- أحمد المراغى: ط القاهرة سنة ١٩١٧م
٢٧-العمدة- ابن رشيق: ط القاهرة سنة ١٣٠٧م
٢٨- الكامل- المبرد: ط القاهرة سنة ١٣٢٣هـ
٢٩- لسان العرب- ابن منظور- ط القاهرة سنة ١٣٠٧هـ
٣٠- المثل السائر- ابن الأثير ط. القاهرة ١٩٦٣م.
٣١- مجاز القرآن-أبو عبيدة معمر بن المثنى : ط الخانجى سنه ١٩٥٤م
٣٢-مختار الصحاح- الرازى-ط القاهرة سنة ١٩٢٢م
٣٣-مفتاح العلوم- السكاكى- ط القاهرة سنة ١٣١٧هـ
٣٤-من بلاغة القرآن- المرحوم الدكتور أحمد بدوى: ط القاهرة سنة ١٩٥٠م
٣٥-نقد الشعر- قدامة بن جعفر الكاتب: ط الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ
٣٦- نهاية الأرب- النويرى: ط دار الكتب المصرية.
٣٧- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز - الرازى: ط القاهرة سنة ١٣٢٧هـ
٣٨-الوسيلة الأدبية- حسين المرصفى:ط القاهرة سنة ١٢٨٩هـ